

اقرا

عباس محمود العقاد

محفل بيته



دارالمعارف

اقرا

[۱۳]

مجلس

عباس محمود العقاد

حبل بئس

الطبعة السادسة



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها،
لم يفكروا إلا في شيء واحد، هو نشر الثقافة
من حيث هي ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ
أبناء الشعوب العربية. وأن يتفهموا، وأن
تدعوهم هذه القراءة إلى الإستزادة من
الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى
وأخصب من الحياة العقلية التي نعيشها.

طه حسين

تمهيد

كتبت هذه الرسالة عن جميل بن معمر الذي شهر بشيئة بحبه حتى اشتهر بها فسمى جميل بشيئة ، وكان في زمانه إمام العشاق العذريين غير مدافع ، وأستاذ المدرسة الغزلية التي تجرى على طريقته في النسيب والتشبيب ، وهي مدرسة الشعراء المحبين الموكلين بمحبوبة واحدة ، ينظمون الشعر فيها ولا ينظمونه في غيرها ، وقلما يطرقون باباً من النظم غير باب النسيب .

وقد اعتمدنا في أخباره على مصادر كثيرة ، لم نر بينها ما هو أولى بالرجوع إليه والاعتماد عليه من كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصفهاني ، لأنه أقرب إلى التحيص والتثبت فما يرويه ، فضلاً عما تعودناه منه في أمثال هذه السير من الجمع والاستيفاء

والذي يبدو لنا من مجمل أخباره التي راجعناها أنه « شخص طبيعي » تصدر منه الأقوال والأعمال التي يعقل أن تصدر عن كل موصوف بمثل صفاته ، وإن وقع فيها الخلط والاضطراب كما يقع في أخبار جميع الأحياء الذين نراهم رأى العين

فهو سند صالح لمعظم أقواله وأعماله ، كما أن أقواله وأعماله مادة صالحة « لتكوين » شخص على مثاله ، والترجمة لحياة كحياته .

فإذا قرأنا شعره وحوادث غرامه فهمناه ، وإذا فهمناه سهل علينا أن نعود إلى ما قاله وما قيل فيه فنعرف منه الزيف والصحيح . ولو على سبيل الترجيح .

وفحوى ذلك كله أن ما قاله وما قيل فيه لا ينجلي بعد الغرابة والمضاهاة عن شخص مستحيل ، ولا عن أجزاء مفرقة بلحمة شخوص كأنها الأشياء التي لا تكمل لها صورة ، وقد تعدد فيها الجوارح والأعضاء فوق ما يراد للبنية الواحدة .

ونعتقد أن شعراء العشق جميعاً في عصر جميل يصدق عليهم من هذه السمات ما يصدق عليه ، مع اختلاف يسير في الوضوح والتحقيق .

فهم جميعاً ثمرة عهد لا بد أن يثمرهم . وإنما وجه الغرابة أن تهباً أسباب ظهورهم ولا يظهروا . وليس وجه الغرابة أنهم ظهروا في تلك البيئة وفي ذلك الزمان .

وقد تهبأت تلك الأسباب كل التهيؤ كما لخصناها في بعض فصول هذا الكتاب . فهم إذن شخوص طبيعئون تحيط بهم أحوالهم الطبيعية . ومن هذه الأحوال الطبيعية أن يتعرضوا

للخلط والتناقض أو للروايات المتشابهات عن هذا وذاك .
 فمن الطبيعي أن تختلط أخبار بعضهم ببعض ؛ لأنهم جميعاً
 عشاق . وجميعاً من أهل الحجاز وما حوله ، وجميعاً من أبناء
 عصر واحد ، ينظمون بلغة عصر واحد وينسجون على طريقة
 واحدة . فإذا تشابهت أقوالهم وأخبارهم حتى جاز الاختلاط
 بينها فلا غرابة في ذلك ، بل لعل الغريب ألا يقع الاختلاط
 مع هذا التشابه الكثير .

ومن الطبيعي أن تحتل أخبارهم المبالغة إلى أقصاها .
 لأن المبالغة مقرونة بشهرة كل « بطل » في باب من الأبواب .
 فلا يشتهر أحد بالشجاعة أو بالكرم أو بالهجوع إلا أضاف إليه
 الناس كل ما يتصل بهذه الشهرة وتنافسوا في التزيد عليها
 والتهويل فيها . وما من بطل خرافي أضيف إليه من المبالغات
 فوق ما أضيف لعل بن أبي طالب حتى حارب الجن ونحاته
 الطائي حتى جاوز السفه . ولأبي نواس حتى استنفذ موبقات
 الناس وأفرغ جعبة الظرفاء أصحاب الملح والنوادر . وكلهم مع
 هذا شخوص طبيعيون لا تمنعنا المبالغة أن نردهم إلى قرار .

ومن الطبيعي أن تتناقض أخبار أولئك الشعراء والعشاق .
 لأنهم شخوص حقيقيون يتعدد الرواة عنهم والمتحدثون بأحاديثهم .
 وليسوا من اختراع مخترع واحد يصوغهم كلهم في قالب واحد .

ويعرضهم كلهم في مخيلة واحدة
فهم شخوص طبيعيون

ولن يكونوا طبيعيين حتى يتعرضوا لمثل ما تعرضوا له من
التناقض والتشابه والمبالغة والإحالة

وأقربهم إلى الطبيعة فيما نرى جميل "صاحبنا في هذا الكتاب .
فهو لا يتفق له وجود - حيث وُجد - إلا على الصورة التي
تجملها لنا قصائده وأنباء رواته ، وعلاقته بمعشوقته بشينة
مستقيمة على النهج الذي ينبغي أن تستقيم عليه ، وإخلاصه لها
أو إخلاصها له هو الإخلاص الذي ينطوي عليه كل عاشقين
مثلهما ، لا هو في السماء ولا هو في الخيال ولا هو فوق طاقة
الناس . ولكنه الإنسان حيث كان واحد في كل مكان
وزمان

وقد عنانا في هذا الكتاب أن نوفق بين البواعث النفسية
والعوامل الطبيعية في سيرة هذين العاشقين ، وأن نفهم الأدب
على مصباح من علم النفس ومن حقائق الطبيعة ، فلا نرجع به
إلى لفظ تلوكة الأفواه ، بل نرجع به إلى وشائج طبع تمتزج
بالأبدان والأذهان

عصر جميل

عاش جميل في القرن الأول للهجرة .

وهو قرن حافل بأحداث السياسة : تحولت فيه الدولة الإسلامية من نظام إلى نظام ، ومن قطر إلى قطر ، ومن سيرة إلى سيرة . فخرجت من الخلافة إلى الملك الموروث ، ومن الحجاز إلى الشام ، ومن بساطة الحياة الدينية إلى بذخ المعيشة الحضارية التي جمعت بين بقايا حضارة الفرس وبقايا حضارة الروم .

وليس بنا في هذه العجالة أن نسجل حوادث العصر كله أو نتعقبها من بدايتها إلى نهايتها تعقب تفصيل أو تعقب إجمال ، فكل أولئك لا يعنينا فيما نحن فيه إلا من طرف واحد : وهو الطرف الذي يتصل بحياة شاعرنا جميل ، ومن شابهه من الشعراء في بيئته وزمانه .

وأوجز ما يقال في تلك البيئة أنها البيئة التي تخرج أمثال جميل من شعراء البادية المحيطين بالحضارة الحجازية ، والمتصلين بحواضر الإسلام في مصر والشام .

فالعصر الذي عاش فيه جميل بالحجاز كان عصر

استئناف للحياة الحجازية قبل ظهور الدعوة الإسلامية ، ولكن على نحو جديد .

وكان المعول الأكبر في الحجاز على حياة المدن التي يقصدها الناس للتجارة وقضاء المناسك السنوية . وقد طال عهد تلك المدن بالتجارة واستقبال القصاد ، فاجتمع فيها الثراء بأيدي السراة وأصحاب القوافل والأموال الغادية الرائحة بين رحلة الصيف ورحلة الشتاء ، واجتمع مع الثراء ما يتبعه أبداً من الترف واللهو والإباحة وإيثار الدعة والرخاء .

ثم ظهرت الدعوة الإسلامية فشغلت الناس عن ذلك كله بالجهاد بين المسلمين والمشركين ، ثم علت كلمة الدين في عهد النبي عليه السلام وفي عهد خلفائه الراشدين ، فعز على أصحاب اللهو والترف أن يتبادوا فيما كانوا فيه ، فاهتدى منهم من اهتدى واستتر منهم من بقى على ضلاله ، ووجد أكثرهم منصرفاً له عن معيشته الأولى في هذه المعيشة الدينية الجديدة ، وفي شواغل السياسة والحرب التي كانت تزدحم بها عواصم الدولة الإسلامية ، وهي يومئذ عواصم الحجاز .

ثم ارتفعت رقابة الخلفاء الراشدين عن تلك العواصم ، وتيسر للمترفين ما كان متعسراً قبل ذلك من ضروب اللهو والمتعة ، مع اختلاف محسوس تقضى به رعاية الدين .

وانتقلت الدولة من عواصم الحجاز إلى عواصم الشام فتفرغ أولئك المترفون لحياة الفراغ التي لا رقابة عليها، وربما تجاوز الأمر قلة الرقابة إلى التشجيع على حياة المجون والبطالة . لأن أصحاب الدولة الجديدة كانوا يخشون من أبناء الرؤساء في الحجاز أن ينصرفوا عن حياة الفراغ إلى حياة الجهد والطموح . فليس في جدهم وطموحهم أمان للدولة الجديدة، وإنما الأمان لها كل الأمان أن يلعبوا ويرتعدوا ويجمعوا على اللغو والفضول وإيثار الدعة والرخاء فاستأنفت الحواضر الحجازية تاريخاً قديماً طويلاً في اللهو والمجون ، وعادة « الظرف » المأثور في عرف أولى النعمة أن يصبخوا ويمسوا بين المنادمة والمسامرة ، وأحبها وأشيعتها حديث الغزل وشايات الغرام .

هذه الحياة عدوى لا يسلم منها من عاش فيها ولو كان مطبوعاً على الجهد والطموح ، لأنها كالجو الذي يتنفس فيه كل متنفس يشاء أو لا يشاء . وغاية ما فيها من فروق أن البنية السليمة تقوى على أنفاس ذلك الجو من حيث تضعف البنية السقيمة . أما الهواء الذي يتنفسونه جميعاً فلا اختلاف فيه . فمن أشجع الرجال الذين نشأوا في تلك البيئة ولا ريب كان مصعب بن الزبير سليل الشجعان ووريثهم في شمائل النبل والشم والمضاء .

وكان له من الجهد ما يشغله عن معيشة أهل البيئة التي نشأ فيها ، وينجيه من أوهاق^(١) المتعة التي يتمرد عليها من طبع على غراره ، لو كانت هناك منجاة .

كان مع عمه عبد الله صاحبي ملك ينافس ملك بني أمية ، وتولى البصرة والكوفة والعراق فضبط أمورها واستبقاها زمناً على الولاء له ولأهل بيته . ونهض عبد الملك بن مروان لقتاله بنفسه ، فأنفذ إليه الجيوش وراء الجيوش ، فكان يبرز لها ويضربها ويفرق شملها . ثم أوفد إليه أخاه محمداً بن مروان يعرض عليه الأمان وولاية العراقيين ما دام حياً وصلة من المال تبلغ ألفي درهم . فأبى مصعب إلا أن يقاتل حتى يغلب أو يموت دون التسليم . ونحذله أصحابه طمعاً في هدايا بني أمية ، فما زال في البقية الباقية من أنصاره يقاتل ويغامر حتى مات .

قل إن عبد الملك بن مروان جلس بعدها بين أصحابه يسألهم : من أشجع الناس ؟ وهم يروغون في الجواب ، فقال لهم : بل أشجع الناس مصعب بن الزبير ، عرضت عليه الأمان والمال وولاية العراقيين وعنده عائشة بنت طلحة أجمل النساء فأبأها وآثر الموت على التسليم

(١) الوهق : حبل يوضع في عنق الدابة له أنشودة .

وتلك شهادة عدو لا ينفعه أن يكتبها ، لأنها أشهر من أن يحجبها الكتان .

فالحق الذى يعرفه أعداء ذلك الرجل وأصدقائه أنه شجاع وأنه نبيل وأنه لا يقرن بالحد والطموح لذة من لذات الدنيا .

ومع هذا حسبنا أن نذكر له حكايتين اثنتين لنذكر كيف شاع الغزل وأحاديث الغزل ومواقف الغزل فى البيئة التى نشأ فيها وأحاطت به آدابها ودواعيها . فكل حديث عن الغزل والتهالك عليه مصدق إذا قوبل بهاتين الحكايتين من هذا الرجل الذى قل نظرائه فى الحد والطموح .

إحداهما تتصل بشاعرنا جميل وتلدور على بيتين قالها فى صاحبه بشينه ، وهما :

ما أنس لا أنس منها نظرة سلفت
بالحجر يوم جلثا أم منظور
ولا انسلابها خرساً جبائرها
إلى من ساقط الأوراق مستور^(١)

قيل إن مصعباً سمع البيتين فود لو يعرف كيف جلثا .
فأنبأوه أن أم منظور التى أشار إليها الشاعر لا تزال ب قيد

(١) الروق الفسطاط ، والحبائر الدمالج والأسورة ، والحجر اسم موضع .

الحياة . . . فكتب في حملها إله مكرمة . وحملت إليه ،
 ووصفت له تلك الحلوة فقالت : « ألبيتها قلادة بلع ومخنقة
 بلع واسطتها تفاحة ، وضفرت شعرها وجعلت في فرقها شيئاً
 من الخلق - أي الطيب - ومر بنا جميل راكباً ناقته فجعل
 ينظر إليها بمؤخر عينه ويلتفت إليها حتى غاب عنها .

فقال لها مصعب : فإني أقسم عليك إلا جلوت عائشة
 بنت طلحة مثل ما جلوت بثينة . ففعلت . ثم ركب مصعب
 ناقته وأقبل عليهما وجعل ينظر إلى عائشة بمؤخر عينه ويسير
 حتى غاب عنها ، ثم رجع !

أما الحكاية الأخرى فتدور على بيتين لتلميذ جميل
 - ونعني به كثير بن عبد الرحمن - وهما :

وما زلت من ليلي للذن طرّ شاربني
 إلى اليوم أخفى حبها وأداجن
 وأحمل في ليلى لقوم ضغينة
 وتحمل في ليلى على الضغائن

وخلاصتهما أن مصعباً أبصر الشعبي - الرواية المحدث
 المشهور - وهو في المسجد فأمره أن يتبعه ، وتقدمه وهو لاحق
 به ، حتى دخل منزلاً ثم دخل إلى حجرة في المنزل ووقف

الشعبي ينتظر ، فإذا جارية قد خرجت تقول له : إن الأمير
 يأمر أن تجلس ، فجلس على وسادة وارتفع سجد الحجلة عن
 مصعب ابن الزبير ، ثم ارتفع السجد الآخر عن عائشة
 بنت طلحة

قال الشعبي : فلم أر زوجاً كان قط أجمل منهما ، ثم
 سألت مصعب : هل تعرف هذه ؟

قلت : نعم !

قال : ومن هي ؟

قلت : سيدة نساء المسلمين عائشة بنت طلحة .

قال : لا . ولكن هذه ليلى التي يقول فيها الشاعر :

وما زلت من ليلى لئن طر شاربي . . . وأنشد البيتين

ثم قال : إذا شئت فقم !

فلما كان العشي دخل الشعبي المسجد فإذا الأمير جالس

على سريره فيه ، فاستدناه وسأله : هل رأيت مثل ذلك
 الإنسان قط ؟

فقال الشعبي : لا والله

قال الأمير : أفترى لم أدخلناك ؟ . . لتحدث بما رأيت

ثم التفت إلى عبد الله بن أبي فروة فأمره أن يعطيه عشرة

آلاف درهم وثلاثين ثوباً

قال الشعبي : فما انصرف أحد بمثل ما انصرفت به :
 بعشرة آلاف درهم ، وبمثل كارة القصار^(١) ثياباً ، وبمنظرة
 من عائشة بنت طلحة !

وكلام العالم المحدث هنا يتم كلام الأمير المكافح
 المقدام : كلاهما شاهد على شأن الغزل في ذلك الجيل ، حتى
 ليحسب العالم النظرة من الحسنة جائزة تقرر بعشرة آلاف درهم ،
 وحتى ليحكى الأمير مواقف الشعراء العشاق ويود أن يتحدث
 الناس بغرامه كما يتحدثون بغرام أولئك الشعراء .

ومتى اشتغل مصعب بالغزل هذا الاشتغال فقل ما شئت
 فيمن هو أفرغ للمنادمة والسر وأحاديث الحسان والعشاق :
 إنهم خلقاء ألا يفرغوا لحظة من هذه الأحاديث ، ولا يزالوا
 بحاجة إلى الشعراء المنشدين يرددونها نظماً وغناء ، وهي عندهم
 أحب ما يستحب فيه التردد

ذلك شأن الحواضر الحجازية

وليست البادية من حولها بأقل غزلاً أو نظماً في الغزل من
 الحواضر على اختلافها ، وإن تباينت الأساليب والآداب .
 فلا يفوتنا أن البادية أفرغ للغزل وأرحب به مجالا من

(١) القصار : الذي يحور الثياب ، والكاراة : ما يجمع فيه ثيابه .

الحاضرة ، على غير ما يتبادر إلى الذهن من الخطوة الأولى .
 لأن البدوى والبدوية يستعيضان بالغزل عن عشرات من
 الملاهي الحضرية التي تدور عليه وتحوم حوله في المدينة الكبيرة
 وإن شئنا أن نعرف حاجة البدو إليه فلنذكر أنواع الفنون
 التي يستغرفها الحضريون في صدد العلاقات بين الرجل والمرأة
 ولا يتاح نظيرها لأبناء البادية .

فالمسارح ، والأندية ، ودور الصور المتحركة ، والقصص
 المطبوعة ، والمراقص ، والمنازه التي يشترك فيها الرجال والنساء ،
 والأغاني ، والقصائد ، وفروع كثيرة من التصوير والنحت
 والنقش والزينة — كلها معارض لتمثيل الغزل بأنواعه في الحاضرة ،
 ولا يقابلها في البادية إلا غزل الشاعر بالحسناء ، وما ينسج
 حوله من الأحاديث والدسائس والوشايات .

فالغزل وحده عند البدوى عوض عن هذه الأنواع الممنوعة
 من أحاديث الرجل والمرأة في المدينة العامرة ، وهذا مع كثرة
 الشواغل في المدن وقلة الشواغل في البوادي ، إلا ما كان من
 رعى أو سقى يقربان بين الرجل والمرأة ويلجئانهما إلى الغزل
 ولا يشغلانهما عنه . فضلا عن معيشة الفطرة بين الأحياء التي
 لا تنقطع فيها صلوات الذكور والإناث ، وليس الإنسان بدعاً
 بينها في هذه الغريزة الفطرية .

فالبادية مهد الغزل قبل الحاضرة

وأيسر للمرء أن يتصور مدينة بغير شعر غزلى من أن
يتصور بادية لا تنظم هذا الشعر فى كل حين
إلا أن البادية تتقيد ببعض القيود التى تستدعيها معيشة
البدو ولا تستدعيها معيشة الحضريين .

لأن « المنعة » ضرورة من ضرورات الحياة بين أهل
البادية ، ولا مناص لهم من الاشتهار بمناعة الحوزة بين الأعداء
والنظرء ، وإلا طمع فيهم كل طامع واستباحهم كل مستباح
وأول حوزة يحميها الرجل هى المرأة

فمن شرف « البدوى » أن تكون فتاته منيعة الحمى يتقاصر
عنها لسان المتغزل كما يتقاصر عنها سيف المغير

وهذا هو القيد الذى يختلف به أهل البادية من أهل المدينة
ولكنه قيد « سبىء الحظ » كجميع القيود التى تحيط
بالغرائز وتحبس من ناحية ما يطلقه الطبع من ناحية أخرى

فمنذ القدم والقيود التى تفرضها العادات تتولى على الرجال
والنساء بما يطاق وما لا يطاق ، ومنذ القدم والعرف مضطر إلى
كثير من الإغضاء والتعاضى عن تلك القيود . فهى موجودة
ومفتاحها موجود ، ولا يزال القيد منها مقروناً بمفتاح

فإذا حجرت العادات من ناحية جاءت الفنون فتسمحت

من ناحية أخرى . وقد يفض الرجل المتدين بصره إذا مرت به
حسناً يخشى فتنها ، ولكنه يسمع بيتاً في الغزل وهو غاض
عينه فلا يخلق دونه أذنيه

وقوانين البادية كجميع القوانين عرضة للتشديد والتخفيف
وللرعاية والإهمال ، وللمحابة والاحتيا

فقد يطول عهد الرخاء بالقبيلة فهدأ فيها سورة القتال
وتضعف المغالاة بالمناعة وما يتبعها من الغيرة والسطوة ، وقد
يطول بها عهد الفاقة فيترخص أبناؤها وبناتها في الأمور التي
كانوا يتشددون فيها ويستكينون للسبة التي كانوا يتذمرون منها ،
وقد تجاوز قبيلة قبيلة أقوى منها فتزل على حكمها وتصبر على
نزوات أهلها ، وقد تجاوز الحاضرة فتجری على سنة الحضريين
في الرفق والدمائة ، وتزل شيئاً فشيئاً عن الجفوة والحشونة

وكل أولئك كان يحدث في القبائل الحجازية على عهد جميل
كان منها من استغنى عن القتال بعد أن تكفلت الدولة
القائمة بصيانة الحقوق ومنع العدوان وجزاء المعتدين

وكان منها من طال فيهم الغنى كآل جميل ، ومنها من قل
غناهم وجاوروا من هم أقوى منهم كآل بشنة ، وكانوا جميعاً
يختلفون إلى الحواضر ويتشبهون بظرفائها وينكرون الحشونة على
البادية وأهلها

فاتسع ميدان الغزل حاضراً وبادياً ، وظهر شعراء النسيب بنوعيه ، تغنياً بامرأة واحدة كما يغلب على شعراء البادية ، أو تغنياً بالحسنان جميعاً كما يغلب على شعراء الحاضرة ، ونهياً العصر لطائفة من شعراء المدرستين على رأسهم عمر بن أبي ربيعة يتغنى بحسان مكة وكل حسناء تقبل عليها ، وجميل بن معمر يتغنى بصاحبته بثينة ويعيش ويقضى نحبه على هواها

* * *

وما فتئت البادية العربية منذ القدم ميداناً فسيحاً للأقوالين والرواة ، لأنهم سلاح من أسلحتها ومصلحة من مصالحها وثقافة أدبية تعدل عندها ثقافة الفنون والآداب والتواريخ في أمم الحضارة

ولها معهم عرف ذو وجهين يجرى على الرياء والمداواة ، ولا سيما في الغزل والفخر الحماسي . وهما قوام الشعر البدوي أو قوام كل شعر على الفطرة عنيت بحفظه الجماعات الأولى فهي تحرم الغزل بيناتها ولكنها تحفظ للأعقاب منظومات شعرائها ، ولو كان عرفها في هذا الباب ذا وجه واحد لما بقيت لنا قصيدة من قصائد العشاق ولا خبر من أخبارهم ، ولا قصة من قصص الشعراء الواصفين والحسان الموصوفات . ولكنهم كما رأيناهم قد عنوا بكل كلمة قالها شاعر في حسناء وبكل مساجلة

بين عاشقين كأنها من وثائق التاريخ التي لا تنسى ، وما ذاك لأنهم يحبون الرياء أو يقصرون في كراهة المحظورات ، فإنهم في الواقع يبلغون من كراهتها أقصى ما في وسعهم أن يبلغوه ، ولكنهم يفعلون ذلك لأن بواعث الحب في الفطرة الإنسانية أقوى من أن يكبحها العرف أو يقضى فيها بقضاء واحد ، فلا بد من التجوز والإغضاء ، أو لا بد هنا من عرف ذي وجهين .

أما الفخر الحماسي فموضع الرياء فيه مع شعرائهم أنهم يزدرون الشاعر ويفخرون بكلامه ، وربما ارتفعت قبيلة بكلام شاعر وهو بينهم في مكان غير رفيع ، وربما كان تحريمهم زواج الفتاة بمن ينظم فيها الغزل ضرباً من ازدراء الشعراء كما كان ضرباً من حماية العرض ومنع الذمار . إلا أنهم في الفخر كانوا أصرح منهم في الغزل والنسيب . وربما اجتمعت القبائل علانية لسماع شاعرين يتراجزان ويتناجزان ، ويذكران الأعراق والأوطان ، ولم تأذن بإعلان الغزل على هذا النحو ولا بتناقله بينهم إلا من وراء أذن السامع وعين المشيع

وقد كان لحميل حظه الوافي من الحالين في الغزل والفخر على السواء ، فسارت الركبان بأحاديث هواه و « تجمعت الأعراب أرسالا » لسماع أراجيزه في الفخر بذويه ، وخرج

من حلبة الفن بنصبيين متناقضين : فأما شخصه فقد جنى عليه شعره وحال بينه غزله وبين صاحبه على ما كان له بين قومه من مكانة وثناء ، وأما شعره فقد ظفر بكل عناية في وسع قبيلة بادية . ولا سيما الغزل الذي منعه وأوشكوا من أجله أن يقتلوه وهما يكن من عرف العصر والقبيلة فقد كان عرفاً يسمع بغزله ويستدعيه ويستبقيه ، أو كان عرفاً صالحاً لتشجيع العاشقين . وإن لم يكن صالحاً بينهما لوثام الزوجين وتاريخ الآداب لا يجمع عقود الزواج ولا دعوات الزفاف ، ولكنه يجمع الشعر الذي قاله العاشق ولو جنى عليه ؛ وهكذا صنع بشعر جميل .

من هما ؟

جميل بن عبد الله بن معمر من بني عذرة من قضاة التي
تسكن بالحجاز على طريق مصر والشام ، وأمه من « جذام »
وهي تسكن في الجانب الشمالي من هذه الطريق

ويلتقى نسبه ونسب صاحبه بثينة عند جددهما حن بن
ربيعة ، ثم يختلفان على ما بينهما من تقارب النسب في قوة
العشيرة وصلاح الحال

فكان قومه أعز من قومها ، وكان أبوه « ذا مال وفضل
وقدر في أهله » يلقب بصباح ويحسب له في بطون قضاة
كلها حساب كبير

ومن هيئته بين هذه البطون أن السلطان أهدر دم جميل
إن وجدته أهل بثينة في دورهم ، فوجدوه عندهم مرات ولم
يجترأوا على قتله . بل جعلوا يعذرون إليه وإلى أبيه مرة بعد مرة
مخافة حرب لا قبل لهم بها بين العشيرتين . إلى أن أغلظ له أبوه
القول من تتابع الشكوى إليه ، فكف عنها ما استطاع ثم رجع
إلى سيرته معها بعد حين

ولعله استغنى بجاه أبيه وماله عن قصد الولاية والأمراء بالمديح

طلباً للجوائز والهبات ، حتى كان بعضهم يستدعيه إلى مدحه
 فيعدل عن ذاك إلى الفخر بقومه في حضرته ، كما حدث بينه
 وبين الوليد بن عبد الملك حين سافر معه ثم رجز مكين العذرى
 بالوليد قائلاً :

يا بكر هل تعلم من علاكا خليفة الله على ذراكا

فطمع الوليد أن يمدحه جميل ، ودعاه أن ينزل فيرجز ،
 فتزل فقال مفتخراً :

أنا جميل في السنام من معد في الذروة العليا والركن الأشد
 والبيت من سعد بن زيد والعدد ما يبتغي الأعداء مني ولقد
 أضرى بالشم لساني ومرد أقود من شئت وصعب لم أقد

فغضب الوليد وقال له : اركب لا حملك الله !
 ومن جملة سيرته يظهر أنه كان كما قال صعباً لا يقاد ،
 أو كان على شيء من العناد والخيلاء . فكان يستعظم أن
 يجترأ عليه أحد بمناداته باسمه في الطريق ، وحدث بعضهم أنه
 كان في رهط من علية القوم عند شعب « سلع » بالمدينة . . .
 « إذ طلع علينا رجل طويل بين المنكبين ، طوال ، يقود راحلة
 عليها بزة حسنة . . . فصاح به عبد الرحمن بن أزهر : هيا

جميل ! هيا جميل ! . . . فالتفت مستكبراً يسأل : من هذا ؟
فلما عرف عبد الرحمن قال : قد علمت أنه لا يجترئ على
إلا مثلك ! . . ثم جلس فأنشدهم حتى بدا له أن يقوم
« فافتاد راحلته مولياً »

والبزة الحسنة — على ما يظهر من جملة سيرته أيضاً —
كانت من لوازمه التي اشتهر بها ولا سيما في المحافل ، حتى لقد
كان يحسب متنعكراً إذا مشى في البادية بزي الرعاة ، وقال
بعض أصحابه : « قدمت من عند عبد الملك بن مروان وقد
أجازني وكساني برداً كان أفضل جائزني . فتزلت وادي القرى
فوافقت الجمعة بها ، فاستخرجت بردى الذى من عند
عبد الملك وقلت أصلى مع الناس . فلقيني جميل — وكان
صديقاً لى — فسلم بعضنا على بعض وتساءلنا ثم افترقنا . فلما
أمسيت إذا هو قد أتاني في رحلى فقال : البرد الذى رأيته عليك
تعبرينه حتى أتجمل به ، فإن بينى وبين جوّاس الشاعر
مراجعة . . . قلت : لا . بل هو لك كسوة ، وكسوته إياه . . .
فلما أصبحنا جعل الأعراب يأتون أرسالا حتى اجتمع منهم
بشر كثير ، وحضرت وأصحابى ، فإذا بجميل قد جاء وعليه
حلتان ما رأيت مثلهما على أحد قط . وإذا بردى الذى كسوته
إياه قد جعله جلا لجمته . . . »

فالرجل الذي يتخذ خبطة من الخليفة يزهي بها صاحبها جلاً
لحملة ويلبس خيراً منها ، رجل ولا شك مفرط الخيلاء معنى
بحسن البرة وأناقة الكساء ، وقد ترجع هذه الخيلاء إلى النشأة
العزيزة في بيوت الرئاسة بالبادية ، فليس أقرب إلى الخيلاء من
من أبناء هؤلاء الرؤساء . ولا سيما الذين رزقوا منها جمال السمات
وروعة المظهر كما رزق جميل

إلا أنها على هذا خليقة مطبوعة فيه لها مرجع غير التدليل
والنشأة في بيوت الرئاسة كما يؤخذ من بعض أوصافه . فقد ذكر
صاحب له من أهل تياء أنه كان معه يحدثه ويستمع له
« إذ ثار وتربد وجهه ووثب نافراً مقشعر الشعر متغير اللون »
حتى أنكره

فهذه الخليقة الجوامحة التي لا يملكها صاحبها هي على
التحقيق مرجع من مراجع تلك الخيلاء التي اشتهر بها جميل ،
وقد توافق الطبع والنشأة والمظهر على الإيلاء لصاحبنا في
خيالاته . فغير عجيب مع هذا كله أن يتحامق ويحمق
فلا يستر حقه حيث يريد وحيث لا يريد
وكيف يخفى حق جميل وهو القائل :

لا لا أبوح بحب بشة إنها أخذت على موافقاً وعهودا

أيقول هذا البيت رجل رشيد كائناً ما كان قصده وذاهباً
ما ذهب في معناه ؟

إنه كان مضرب المثل بحق على حماقة « كاتم السر » الذى
يقسم ألا يبوح به ، وهو فى قسمه على الكتمان قد باح !

* * *

فجملة المفهوم من أوصافه وأخباره أنه كان فى من
الفتيان الذين تكتب لهم — أو تكتب عليهم — حياة الغرام .
فكان وسيماً قسيماً طويل القامة عريض المنكبين مدلاً فى
نشأته منظوراً إليه فى بزته وعزة قومه ، على ضعف فى الخلق
والعقل يقعد به من عظام الأمور . ولا يكبح جماحه أن بدأت
به غواية الهوى فمادت به إلى منهاها . وكذلك رشحته النشأة
والخلقة والخلقة ليكون جميل بشينة . وجاء العصر والجوار فزكيا
هذا الترشيح وأوسعاه له عن مداه ، فهو فى دوره الذى تمثل لنا به
فى عالم الشعر غير غريب .

* * *

أما صاحبه بشينة فقد وصفها جميل بعين المحب ووصفها غيره
كما يراها كل من رآها . فخلص لنا من جملة هذه الصفات أنها
كانت « أدماء طوالة » كما قال عمر بن أبى ربيعة . وأنها تفرع
النساء طولا كما قال الرجل الذى حمل إليها نعى جميل .

ومن كلام عمر وجميل معاً يبدو لنا أنها كانت على سنة
البدويات في التأني والدلال الذي يشوبه الجفاء . فلما تصدى
لها عمر بن أبي ربيعة خرجت له في مبادلها لا تحفله وقالت له :
« والله يا عمر لا أكون من نسائك اللاتي يزعمن أن قد قتلهن
الوجد بك ! » .

وقال جميل :

ولست على بذل الصفاء هويتها ولكن سبتني بالدلال وبالبخل

فهي معشوقة بدوية صالحة « لدورها » المشهور مع جميل ،
وقد زادنا جميل معرفة بتفصيلات ملامحها فقال : « إنها لطيفة
طى الكشح ذات شوى خدل^(١) » . . . وكرر هذا الوصف
مرات فقال :

إلى رجح الأكفال هيف خصورها

عذاب الثنايا ريقهن طهور

ووصف ثغرها مرة أخرى فقال :

مفلجة الأنيا ب أو أن ريقها يداوى به الموتى لقاموا من القبر

(١) الكشح الحصر إلى وسط الظهر ، والشوى الأطراف والخدل المثلث .

وعمم الوصف فذكر جيدها وعينها في بيت يقول فيه :
 وأحسن خلق الله جيداً ومقلة
 تُشَبِّهُ في النسوان بالشادن الطفل

وفي بيت آخر يقول فيه :

لها مقلتنا ريم وجيد جداية
 وكشع كطى السابرية أهيف^(١)

فإذا أعطينا « الوصف التقليدي » حقه من هذه الأبيات
 بقي لنا منها أن بثينة كانت حسناء بدوية لم يثقلها ترف الحاضرة
 ولم يعرقها شظف العيش ، فهي رشيقة معتدلة الخلق سامقة القوام
 مستحبة الملامح لمن يراها ، مفتوناً بها أو غير مفتون .
 ومن بعض أحاديث كثير عن إشارات جميل لبثينة وفطنتها
 إلى معناها وردها عليها لساعتها ، يبدو لنا أنها كانت من الذكاء
 على نصيب يسعف الفتاة في مواقف الغرام ، وهو نصيب غير
 نادر بين جميع الفتيات .

إلا أنها « شن وافق طبقه » في علاقتها بجميل ، فكانت
 لا تخلو من حماقة وخفة يلاحظها من يحادثها ، وقيل إنها دخلت

(١) السابرية حرير ينسب إلى سابور والجدابة ولد الظبي بلغ ستة أشهر .

على عبد الملك بن مروان « فرأى امرأة خلفاء — أى حمقاء -
موليةً ، فقال لها : ما الذى رأى فيك جميل ؟ قالت : الذى رأى
فيك الناس حين استخلفوك .

ومثل هذه الحماقة لا تظهر فى الكهولة إلا كان لها أساس
أصيل من بداءة العمر ، وبخاصة فى عهد الغواية والشباب .

* * *

وقد كان جميل يحاول أن يقتدى فى وصفها بابن أبى ربيع
فى وصفه لنسائه المترفات المنعمات فيقول عنها وعن أترابها :

إذا حمت شمس النهار اتقينا
بأكسية الديباج والخز ذى الحمل

ولكنها محاكاة لا تلبث أن تنكشف وينكشف باطلها كما
ينكشف كل زيف وتلفيق . فبشينة هذه من بنات « بنى
الأحب » الذين قال فيهم جميل حين غضب :

إن « أحب » سفلة أشرار حثالة عودهم خوار
أذل قوم حين يدعى الجار

والذين قال فيهم حين توعدوه مشيراً إلى عجزهم عن قتله
لأنهم لا يقدرُونَ على الحرب ولا على الدية :

إذا ما رأوني طالعاً من ثنية
 يقولون من هذا وقد عرفوني
 يقولون لي أهلاً وسهلاً ومرحباً
 ولو ظفروا بي خالياً قتلوني
 وكيف ولا توفي دماؤهم دمي
 ولا مالم ذو ندهة فيلوني

وليست هي غصبة هجاء يقال فيها بالحق وبالباطل ،
 لأنهم في الواقع لم يجترئوا على حماية عرضهم من جميل حتى بعد أن
 أهدر السلطان دمه لهم إن رأوه في بيوتهم ، وكان قصارى
 ما يصنعه زوجها أن يشكوه ويشكوها إلى أبيها وأخيها ، وقصارى
 ما يصنعه هذان أن يتعرضا لها فيشد عليهم جميل بالسيف فيهربا
 أو يشكواه إلى أبيه ويعذرا إليه . وقد أربيا على حد الإعذار .
 وكأنما كانت وسامة جميل مزية من مزايا كثيرة حببت إليها
 هواه ولم تكن هي المزية الأولى والأخيرة . كان ماله على ما يبدو
 من كلامه بعض هذه المزايا ، إذ لا محل لقوله إن لم يكن هذا كذاك :

ولو أرسلت يوماً بثينة تبغى يمىنى وقد عزت على يمىنى
 لأعطيتها ما جاء يبغى رسوطها وقلت لها بعد اليمين سلىنى
 سلىنى مالى يا بثين فإعسا يبين عند المال كل خنين

ولقد كان يرحل ويعود فيتهما بصلة جديدة ثم لا تبالى
هى أن تلمح إلى هذه الصلة فى بعض مناجاتها إياه .

وقد تزوجت برجل أعور ضعيف المنة لا يروقها ولا تهابه
ولا تشعر بحماه . فلولا أن « بنى الأحب » كانوا فى ذلك الحين
كما وصفهم لما كان زواجها بذلك الرجل خير زواج ترتضيه ،
بعد أن حيل بينها وبين الزواج بجميل .

ونحن نعلم أنها تزوجت ولا نعلم أن جميلا قد تزوج إلى أن
مات ، وقد تكون أوفى النساء له ثم تتزوج لأن أمرها إلى غيرها ،
وهو لا يتزوج لأن أمره بين يديه ، ولكنها لم تكن من الوفاء
بحيث يقدح الزواج وحده فى ذلك الوفاء ، ولعلها إحدى
الكثيرات اللاتى يصدق فيهن وصف كثير تلميذ جميل :

ألا إنما ليلي عصا خيزرانة

إذا غمزوها بالأكف تلسين

عشق جميل وبشينة

كل ما قرأناه عن جميل ، أو قرأناه من كلام جميل ، يدل على طبيعة العلاقة التي كانت بينهما ، وهي العلاقة التي تكون بين الرجل والمرأة وتتدخل فيها الإرادة بعض التعطيل أو كل التعطيل ، أو هي العلاقة التي نسميها العشق والغرام .

ومن الواجب أن نذكر هنا أن العلاقات الإنسانية كلها تستتبع شيئاً من تقييد الإرادة قل أو كثر . فالصديق لا يفارق صديقه بمحض اختياره ، والشريك لا يفارق شريكه وله مندوحة عن فراقه ، وكذلك الزميل أو الزوج أو صاحب الطريق . ولكن التفرقة هنا ضرورية بين تعطيل وتعطيل وبين تقييد وتقييد ، فالذي يتعاطى دواءً ينفعه أو ينتظر منه النفع يصعب عليه أن يتركه ويكف عن تعاطيه ، والذي تعود التدخين يصعب عليه كذلك أن يتركه ويكف عن تعاطيه ، ولكن الفرق بين تقييد الإرادة في الحالتين واضح كل الوضوح .

ففي الحالة الأولى يفكر الإنسان في العواقب وفي المنافع فلا يقدم على الامتناع .

وفي الحالة الثانية يفكر الإنسان أو لا يفكر فالنتيجة سواء .

بل هو قد يفكر ويؤمن بالضرر ويمتلىٰ يقيناً بفائدة الامتناع
ثم لا يمتنع ولا يفلح أحياناً لو حاول الامتناع .

وهذا هو الفرق بين القيود التى يفرضها « الهوى » والقيود
التى يفرضها رأى أو المصلحة .

فالتدخين « هوى » من البداية إلى النهاية ، وعند ما يبدأ
الإنسان فى تعود التدخين يكون قد بدأ فى الهوى أو أراد
الهوى إن صح هذا التعبير ، وليس كذلك من يتناول الدواء
أو يتناول الطعام ، أو يتناول حتى اللون المحبوب لديه من
ألوان الطعام .

وتعطيل الإرادة أصيل فى الهوى كله ولا سيما الهوى الذى
نسميه بالعشق أو نسميه بالغرام .

لأن المرء يرتبط فيه بإرادة شخص آخر فهو مقيد بهذا
الارتباط الذى لا تتفق فيه الإرادتان فى جميع الأحيان .

ثم يتقيد الشخصان معاً بإرادة النوع كله أو بالإرادة
القاهرة التى تتمثل فى الغريزة النوعية وتتغلب كثيراً على إرادة
العاشقين ، وإن اتفقا على حالة من الحالات .

ثم يتقيدان بالعرف الذى يفرضه المجتمع وتفرضه الآداب
والأخلاق فوق ما تفرضه الطبيعة من طريق الغريزة النوعية .

ثم يتقيدان بظروف المعيشة وأحوال الدنيا التى تتاح على

وفاق الهوى أو لا تتاح .

فإذا تميز العشق بين سائر العلاقات الإنسانية بخاصة من الخواص الظاهرة فأكبر ما يتميز به هذا التقييد الشديد لإرادة العاشق من جملة نواحيه .

وقد يبلغ به هذا التقييد لإرادته أن يحول بينه وبين فهم إرادته فلا يعلم ماذا يريد فضلاً عن أن يعلمه ويعجز عنه ، فإذا به قد انقسم على نفسه كما ينقسم المعسكر الواحد إلى ضدين متحارين ، ولا غنيمة لأحد منهما في الانتصار ، إذ هو انتصار لا يخلو في الحالتين من خسارة .

وينتهى به الأمر إلى البقاء على حاله عجزاً عن تغييره لا سروراً به ولا رغبة فيه .

فهو لا يتعلق بمعشوقه لأنه راض عن هذه العلاقة يلتذها ويتشهاها ويتذوق النعمة والهناء فيها ، ولكنه يتعلق به لأنه عاجز عن فراقه ، مقيد بضروب من العادات والوساوس لا حيلة له فيها ولا قدرة له عليها .

ومثله في ذلك مثل المدمن الذي يتعاطى السموم ولا يجهل بلواها ، ولكنه يقلع عنها فلا يقر له قرار ، فيمضي فيها وهو كاره لها يبحث ما استطاع عن سبيل النجاة .

وقد قيل لحميل كل سبب يوجب عليه ، لو ملك اختياره ،

أن يسلو بشينة ويقلع عن هواها ، فكان جوابه لكل سبب من هذه الأسباب أنه لا يستطيع ؛ ولم يكن جوابه أنه يجهل تلك الأسباب أو أنه يعرفها ولا يراها موجبة عنده للتفكير في السلو والفراق .

قال له أبوه : « يا بني ! حتى متى أنت عمه في ضلالك ، لا تأنف من أن تتعلق بذات بعل يخلو بها وينكحها وأنت عنها بمعزل ، ثم تقوم من تحته إليك فتغرك بخداعها وتريك الصفاء والمودة وهي مضمرة لبعْلِها ما تضمرة الحرة لمن ملكها ، فيكون قولها لك تعليلاً ، وغروراً ، فإذا انصرفت عنها عادت إلى بعْلِها على حالتها المبدولة . . . إن هذا لذل وضيم . ! ما أعرف أخيب سهماً ولا أضيع عمراً منك . فأنشدك الله إلا ما كفت وتأملت أمرك . فإنك تعلم أن ما قلته حق ، ولو كان إليها سبيل لبذلت ما أملكه فيها ، ولكن هذا أمر قد فات واستبدَّ به من قدر له ، وفي النساء عوض » .

وهذا كلام مقنع لا ينكره منكر ، ويعلم جميل أنه حق كما قال أبوه .

فإذا علم المرء هذا ولم يعمل به فليس لذلك إلا علة واحدة وهي شلل الإرادة ، وأنه في حال كحال المريض الذي لا يملك الشفاء ، بل ربما كان شراً من هذا المريض في استسلامه

لدائه ، لأن المريض قد يريد الشفاء ويتوسل إليه بوسائله التي في يديه ، ولكن العاشق الذي برح به العشق كما برح بجميل مشلول الإرادة حتى عن التوسل بما يستطيع أن يحاوله من وسائل الشفاء .

وهكذا كان جواب جميل لنصيحة أبيه . فقال له : « إن رأى ما رأيت والقول كما قلت » ثم قال : « ولكن هل رأيت قبلي أحداً قدر أن يدفع قلبه هواه ؟ أو ملك أن يسلي نفسه ؟ أو استطاع أن يدفع ما قضى عليه ؟ والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبي أو أزيل شخصها من عيني لفعلت ، ولكن لا سبيل إلى ذلك . وإنما هو بلاء بليت به تلحين قد أتبع لي ، وأنا أمتنع من طروق هذا الحى والإلمام بهم ولو مت كمداً ، وهذا جهدى ومبلغ ما أقدر عليه ! »

وقال له ابن عمه روق مقالة الند للند الذي يفهمه ويستشير نخوته بالمناظرة في الفتوة والمقاربة في السن :

« إنك لعاجز ضعيف في استكانتك لهذه المرأة وتركك الاستبدال بها مع كثرة النساء ووجود من هو أجمل منها ، وإنك منها بين فجور أرفعك عنه ، أو ذل لا أحبه لك . أو كمد يؤدي إلى التلف ، أو مخاطرة بنفسك لقومها إن تعرضت لها بعد إغذارهم إليك ، وإن صرفت نفسك عنها وغلبت هواك فيها

وتجرعت مرارة الحزم حتى تألفها ، وتصبر نفسك عليها طائفة
أو كارهة ألفت ذلك وسلوت ! » .

وهذا كلام كله حزم وسداد ، ولكن متى كان الهوى في
اشتداده إلا مخالفة للحزم والسداد ؟
فما نصح أب فتاه بأحكم ولا أصوب من النصيحة التي
سمعتها جميل من أبيه .

وما استشار ند ندأ بأبلغ ولا أهيج للنخوة من هذا الكلام
الذي قاله له ابن عمه .

ولكنه أجاب هذا وذاك بجواب واحد هو العجز والبكاء ،
وقال لابن عمه كما قال لأبيه : « يا أخى ! لو ملكت اختياري
لكان ما قلت صواباً ، ولكني لا أملك الاختيار وما أنا إلا كالأسير
لا يملك لنفسه نفعا ! »

أو كما قال في شعره :

هي السحر إلا أن للسحر رقية

وإني لا ألقى لها الدهر راقيا

وأكد ذلك أوثق التأكيد حين حاول أن ينفيه فقال :

يقولون مسحور يجن بذكرها

وأقسم ما بي من جنون ولا سحر

ولم يلبث أن كشف عن السحر كله والجنون كله حين
أردف هذا البيت بيت تال يقول فيه :

وأقسم لا أنساك ما ذر شارق وما هب آل في معلمة قفر (١)

وإنما يقسم هذا القسم من هو مجنون ومسحور ، أو من
سماهم الناس بالمجانين لأنهم لا يملكون ما يريدون ، ويوشك أن
يكرهوا إرادة الخلاص لو ملكوه . فهم في حبيهم للمعشوقة
التي هم مفتونون بها على حد قول المتنبي في افتتان الأحياء عامة
بالحياة :

وإذا الشيخ قال أفّ فـا ملّ

حياة وإنما الضعف مـلاً

لا يشكون العشق لأنهم يطلبون الفكاك منه ، وإنما يشكونه
لأنهم يطلبون الفكاك من أله إن استطاعوه ، وإلا فالبقاء فيه
مع أله حين لا يستطيعون .

وظاهر أننا — في قصة جميل وبشينة — أمام عارض نادر
من عوارض العلاقة الغرامية ، لأن المشاهد المتواتر أن هذه

(١) ذر شارق : أى طلع نجم ، والآن هو السراب الذي يبدو في المعلمة
القفر أى الصحراء .

العلاقة تجرى في مجراها بين كثير من الرجال والنساء ، دون أن تصل إلى هذه اللجاجة الموبقة التي وصل إليها جميل .

ولا شك أن الغرائز النوعية أقوى من إرادة الفرد إذا تحكم النزاع بينهما وبلغ مبلغ الصدام الذي لا محيص فيه من الغلبة لإحدهما . ولكن المسألة هي أن الغريزة النوعية والإرادة الفردية لا تبلغان هذا المبلغ من النزاع والصدام إلا لعارض طارى ليس بالمتكرر في جميع الأحوال ، وهذه هي الندرة التي يدل وقوعها على شذوذ في الفرد أو شذوذ في الأحوال التي تعرضت لها علاقته الغرامية .

فالعشق أصيل في طبائع الإنسان إذا نحن رددناه إلى الغريزة النوعية ؛ بل هو أصيل في طبائع بعض الأحياء من الطير والوحش كما ظهر من تلازم بعض الأزواج واقتصار بعض الذكور على بعض الإناث ، بغير تبديل إلى أمد طويل .

ولكن الغريزة النوعية لم تخلق لشقاء الأفراد ضربة لازب ، ولا يلزم من خدمتها النوع أنها تحقق الفرد وتتقاضاه حقه من الهدوء والحرية في جميع الأحوال . ولا سيما إذا تحققت مصلحة النوع بغير هذه التضحية التي لا توجبها خدمة فرد ولا خدمة نوع .

فإذا اصطدمت الغريزة والإرادة الإنسانية على أطراف دائم مدى الحياة فهناك شذوذ لا محالة في هذه الإرادة أو في

الأحوال التي أحاطت بها ولا يستها ، وذلك هو الشذوذ النادر الذي نشاهد مثلاً من أمثلته الواضحة في قصة جميل .

والأغلب — فيما يبدو لنا — أن علة هذا الشذوذ راجعة إلى جميل نفسه قبل مرجعها إلى الأحوال التي أحاطت به وبمعشوقته بثينة .

فقد اصطلحت عليه أسباب كثيرة توهم من إرادته وتعرضه للعجز عن مقاومة هذه المحنة التي غلبته على رأيه .

فكان مدللاً قليل التمرس بالمصاعب كما يغلب على عامة المدللين ، وكان وسيماً تميل به وسامته إلى التصدى لهذه الأهواء والتفرغ لها والوقوف على طريقها ، وكان المزاج الفنى — أو مزاج الشاعرية — معواناً له على التماهى في هذه الغواية واستيحاء المقاصد الشعرية منها ، وبخاصة حين أغناه اليسار عن معالجة الشعر في أبواب المديح والرحلة إلى الأمراء والرؤساء ، وكان فارغ الوقت لا تملأه الشواغل بما ينسبه أو يسليه أو يقسم وقته بين عمله وهواه ، وكان مع هذا ضعيف الرأى قليل الحزم كما ذكرنا في فصل آخر من فصول هذه الرسالة ، وهي أسباب في جملتها كافية لتعليل تلك الندرة التي جعلته من أبطال العشق المعدودين في آداب اللغة العربية ، ويضاف إليها العصر وأثره والبيئة وحكمها ، وكلاهما كان مما يمد في دواعي هذه الفتنة

وينحى بينه وبين وسائل الخلاص منها .

وقصة هواه لبثينة قصة من أراد الوقوع فى الهوى ، ثم وقع فيه ، وليست بقصة من أوقعته المصادفة وحاول الخلاص من البداية فامتنع عليه .

فكان فى أول عهده بالعشق يهوى « أم الحسير » أخت بثينة الكبيرة ، ثم لقي بثينة فشتمه واستملح شتمها فانصرف من تلك اللحظة عن أختها إليها ، وذلك إذ يقول :

وأول ما قاد المودة بيتنا

بوادى بغيض يا بثين سباب

وربما دل ذلك على خليقة من الخلائق التى تفهم بها لحاجته فى علاقته الغرامية على نحو يندرجداً بين الأقوياء ذوى الغلبة من الرجال .

فمن خلائق بعض الضعفاء أن تغريهم الإساءة والحرمان ، وتزيدهم كلفاً على كلف بمن أحبوا من النساء ، ولا سيما المرأة التى تحسن أن تمزج المنع بالإغراء والإطماع بالإقصاء ، وفى هذا يقول من قصيدة أخرى :

ولست على بذل الصفاء هويتها

ولكن سبني بالدلال وبالبخل

فالسبب استهواه والبخل سباه ولج به في هواه ، وتلك أبدأ آية من آيات العجز وضعف الثقة بالنفس وتعلق تلك الثقة بمشيئة غيره ، إن أقبلت عليه معشوقته رضى عن نفسه واستراح إلى هذا الرضى ، وإن أعرضت عنه ظل في حيرة وابتئاس لا يزولان إلا أن يزيلهما إقبال جديد ، وأما هو فليس بقادر على أن يستغنى برأيه أو يستمد الثقة من قرارة نفسه ، ولو قدر على ذلك لكان إعراض المعشوقة عنه داعياً من أكبر دواعي القطيعة والحناء ، ولكان في وسعه أن يعرض عنها ويكف عن التعلق بها ، ولا يضيره ذلك أو يشعره بنقص في طمأنينته النفسية ، لأنها طمأنينة لا تتعلق بمشيئة سواه .

وفي بعض الضعفاء خليقة قريبة من هذه الخليقة أو هي في مظهر من مظاهرها المختلفة، ونعني بها «حب التعذيب» والحنين إليه ، ومن هؤلاء من يلتمسون الضرب والإيذاء في بعض الأحيان ويسعون إليه ، وقد يستأجرون من يضر بهم ويوقعهم كما يصنع أناس من أصحاب هذه الخليقة في بعض العواصم الأوربية ، ويقرن ذلك دائماً بالنزعات الجنسية على نحو من الأنحاء . فإذا كان جميل من أصحاب هذه الخليقة فهو على تلك الصورة مفهوم ، وأسباب اللجاجة في الهوى عنده أكثر من أن تحتاج إلى مزيد .

أقبلت بثينة على وادى « بغضض » وفيه إبل جميل لترد
الماء مع جارة لها ، فنفرت الإبل عن المورد ، فسبها جميل وسبته ،
فكان هذا أول التعارف بينهما وأول الغرام ، ونسب بها منذ ذلك
اليوم بعد أن كان ينسب بأختها أم الجسير .

وقيل إن جيلا خرج فى يوم عيد والنساء إذ ذاك يتزين
ويبدو بعضهن لبعض ويبدون للرجال ، فوقف على بثينة وأختها
أم الجسير فى نساء من بنى الأحب ؛ ورأى منهن منظراً عجيباً
فقعد معهن وعشق بثينة ، ثم راح ومعه فتیان من بنى الأحب
عرفوا فى نظره حبها ووجدوا عليه ، وقال ينسب بها من أبيات :

عجل الفراق وليتسه لم يعجل
وجرت بوادى دمعك المهمل
لن تستطيع إلى بثينة رجعة
بعد التفرق دون عام مقبل

ثم علمت بثينة أنه نسب بها فحلفت بالله لا يأتيا على خلاء
إلا خرجت إليه ولا تتوارى منه .

وهنا موضع آخر للعجب أو للملاحظة :
لم نسب بها وهو لا يجهل أن النسب يحول بينهما وبين
الزواج كما جرت سنة البادية التى لا تخفى عليه ؟

أغلبته النزعة الفنية حتى حجبت عنه الغاية من غرامه ؟
 أم هي نزوة أخرى من نزوات ضعف الرأى ومطاوعة الغواية
 العاجلة ؟ أم كان حديث العشق والغزل غرضاً مقصوداً لذاته
 لا يفكر معه فى زواج ولا اتصال ؟

أيسر ما يقال فى هذا المسلك أنه مسلك لا حزم فيه ،
 وأنه خلى أن يلتقى بصاحبه فى تلك المحنة التى ابتلى بها وساق
 نفسه إليها .

وقد حيل فعلا بين جميل وبشينة فلم يتزوجا ، طلبها للزواج
 وتزوج بها رجل آخر قيل فى وصفه إنه دميم أعور وظهر من
 أخباره فى قصة جميل أنه كانت له زوجة قبلها ، وأن بشينة
 لم تعيش معه طول حياتها ، وذلك هو نبيه بن الأسود العذرى
 الذى قال فيه جميل :

لقد أنكحوا جهلا نبيها ظعينة

لطيفة طى الكشح ذات شوى خدل

فهى زيجة لا تغتبط بها الفتاة وليس من شأنها أن تقطع
 الصلة ما بين بشينة وجميل ، بل لعلها أخرى أن توثقها وتمكن
 من عراها ، ولا سيما إذا كان الزوج مشنوءاً لفتوره وخوره وقلة
 حميته وعجزه عن إرهاب غريمه ، كما كان مشنوءاً لدمامته

وتفاوت السن بينه وبين عرسه ، وكذلك كان نبيه بن الأسود فيما وصفته لنا الروايات المختلفة كلما ألم جميل بالحى وطرق بيوت بشينة وأهلها فلم يجاوز غضب نبيه أن يشكوها إلى أبيها وأخيها .
وكأنما اتفقت الدواعى جميعاً على إطالة العلاقة بين العاشقين فطالت ولم يقطعها معاً حتى قطعها الموت ، وتخللها ما لا بد أن يتخللها من قرب وبعد ، ولقاء وجفاء ، وشاية وغيره ، وفرص مولية وأخطار معادية ، مما نقله إلينا الرواة أو لم ينقلوه ، ومما صدقوا أو لم يصدقوا فيه ، ومما تناقضوا فى نقله ولا حاجة بنا إلى اتفاقهم عليه .

فبعض هذا التناقض يثبت القصة فى جملتها ولا ينفيها ، لأنه يرينا أن القصة واقعة ينقلها أناس كثيرون ويسمعونها من شتى المصادر ، وليست بالاختراع الموضوع الذى يلفقه قاص فيقدر على التوفيق بين أجزائه والمقابلة بين أطرافه .

وبعض هذا التناقض يرجع إلى تقديرات النقاد أو القراء فيما يحكمون به على الحب وما يجوز فيه ولا يجوز فيستبعدون الخبر الذى هو بعيد عن الحب فى تقديرهم ، ويميلون إلى اتهام الرواة فيه بالوضع أو قلة التحقيق .

من ذلك مثلاً أن صديقنا الدكتور طه حسين يرى من دواعى التشكيك فى قصة جميل أنه غلب بصاحبته مرة وأن «الغدر

لا يمكن أن يصدر عن حبيب عذرى كما تفهمه «
فأحصى الدكتور ألوان الشكوك ومنها اللون الثانى وهو
كما قال :

« شىء من الغدر لا يمكن أن يصدر عن حبيب عذرى
كما تفهمه ، ولا كما كان يفهمه القدماء . زعموا أن أهل بئينة
أذاعوا فى الناس أن جميلاً لا ينسب بابنتهم وإنما ينسب بأمة
لهم ، فغضب جميل لهذه المقالة وأراد أن يكذبها ، فواعد بئينة
والتقيا ذات ليلة فتحدثا ، ثم عرض عليها جميل أن تضطجع
فمانعت ثم قبلت وأخذها النوم ، فلما استوثق جميل من ذلك
نهض إلى راحلته فمضى وأصبح الناس فرأوا بئينة نائمة فى غير
بيتها فلم يشكوا فى أنها كانت مع جميل . وقال جميل فى ذلك
شعراً . أتظن أن مثل هذا الخبر يمكن أن يكون حقاً وأن رجلاً
كجميل كان يحب بئينة حباً كالذى نجد فى شعره يستطيع
أن يعرضها لمثل هذه الفضيحة ؟ »

فتقدير الدكتور هنا لحب جميل وما ينبغى أو لا ينبغى
لمثل حبه هو الذى أظهر التناقض فى هذه القصة وجنح به إلى
تكذيبها .

أما إذا أخذنا بتقدير غير هذا التقدير فلا تناقض
ولا موجب إذن للتكذيب .

وعندنا نحن أن حب جميل لا يمنع أن يعرضها لتلك الفضيحة لأنها لا تتجاوز معنى قصيدة من القصائد الكثيرة التي تغنى فيها بحبها ولقائها ومناجاتها ، ثم أرسلها في أفواه الرواة تطوف البادية والحاضرة حيث قدر لها المطاف

وجميل على ما يظهر من شعره يهتم بالنسب والقالة حتى ليجازف في سبيلها بحظه كله من معشوقته وهو عالم بهذه المجازفة ، فينسب بها وقد علم أن هذا النسب يحرمه أن يتزوج بها ويقسمها لغيره من طلابها . ونحن مع هذا نصدق حبه ونصدق نسيبه ولا نقول : لو كان محباً حقاً لترك النسب بالمحبة ليظفر بها ولا يفقدها

فالتناقض في القصة التي استشهد بها الدكتور طه تقديرى يزول — أو يزول مؤداه — متى اختلف التقدير

وربما اختلف التقدير فكان من أسباب توكيد الخبر أو ترجيحه ولم يكن من أسباب استبعاده وتفيه ، لأن الرجل الذى يشغله النسب هذا الشغل الشاغل يكرهه حقاً أن يقال إنه يتغزل بأمة شائنة وأنه مسلوب العقل مضيع الحياة فى هواها ، ويهون عليه أن يعلن حقيقة هواه ولا يهون عليه أن يحتمل هذه الوصمة المهينة ، وعلالته فى ذلك أنه لا يخشى ضرراً من الفضيحة على من يهوى لأنها قد اشتهرت قبل ذلك بملاحقته لها ولم يصبها

مصاب من ذويها ، غير الشكاية والزجر الذى لا يضرها
والزهو بعدُ عنصر من عناصر العشق لا سبيل إلى نكرانه
والاستخفاف بإغرائه وتحريضه

فالعاشق قد يحتمل النكبة الفادحة ولا يحتمل الغض من
مكانته فى نفس معشوقه ، والشك فى هذه المكانة هو أكبر
لواعج الغيرة ، والحرص عليها هو أقوى أوامر المحبة ، وقد
يجازف بمنفعته وراحته ولا يجازف بقاء تهمة تغض من تلك
المكانة وتذيلها وتسقطها عنده وعند غيره

فجميل صاحب النسب الذى ضيع فى سبيله بشينة كلها
ليس بعجيب منه أن يعرضها لفضيحة لا تضرها ، فى سبيل
كرامة هواه وكرامة نسيبه وكرامة نسبه وأهله .

وقد ينبغى ذلك فى الهوى العذرى أو لا ينبغى فيه ولا فى
هوى من الأهواء ، ولكن من هو العاشق الذى يعمل ما ينبغى
ولا يعمل ما دونه ؟

إنه قد يريد أن يتحامى الضرر الذى يحقق به هو ولا يملك
أن يتحاماها ، وقد يريد أن يدرأ الفضيحة عن نفسه ولا يملك
أن يدرأها ، فلا نحاسبه بما يريد ولا بما ينبغى فى عرفه وعرف
الناس ، وإنما نحاسبه بما يساق إليه وبما هو مغلوب عليه ،
وليس بمستبعد على مغلوب أن يعمل عملاً لا يرضاه ساعة عمله ،

وقد يأتيه وهو نافر منه ساعة يأتيه

* * *

ومن النقائص التي تنجم عن تقدير القراء والنقاد أنهم ربما رأوا للهوى العذرى صفة الكمال ثم يرون هذا الهوى في كلام جميل وأخباره على صفة أخرى

فالهوى العذرى كما شاع على ألسنة واصفيه هوى بعيد من الجسد ونزعاته ، باق ما بقيت الحياة ، ثم هو لا يزال قانعاً على مدى الحياة ؛ بالنظر والحديث والمناجاة ، وقد يتورع عن الملامسة والتقبيل كأنه صلة قائمة بين روحين لا يتمثل لهما جثمان

وقد وصف جميل "هواه على هذه الصفة في بعض ما نسب إليه فقال :

لا والذي تسجد الجباه له مالى بما دون ثوبها خبر
ولا بفيها ولا هممت به ما كان إلا الحديث والنظر

وقال يصف ليلة مع بثينة :

خليلان لم يقربا ريبة ولم يستخفا إلى منكر

وقال عباس بن سهل الساعدي : « دخلنا على جميل وهو يحتضر ، فنظر إلى وقال : يا ابن سهل ! ما تقول في رجل لم

بشرب الخمر ولم يزن ولم يقتل النفس ولم يسرق ، وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟ قلت : أظنه قد نجا . فمن هذا الرجل ؟ قال : أنا . . . قلت : ما أحسبك سلمت وأنت تشيب ببشينة منذ عشرين سنة . فعاد يقسم : لا نالتني شفاعة محمد إن كنت وضعت يدي عليها لريبة ، وأكثر ما كان مني أن أسند يدها إلى فؤادي أستريح ساعة ! »

ووصفوا لقاءه إياها فقالوا إنه كان إذا أقبل حتى كان غير بعيد دعته إلى الجلوس فكأنه لصق بالأرض . . . « ثم يسلم عليها ويسألها عن حالها وتسأله هي مثل مسأله . ثم تقرب إليه جاريته الطعام فيأكل ، وتستنشده ما قال فيها فينشدها ، ولا يزالان يتحدثان لا يقولان فحشاً ولا هجراً حتى إذا قارب الصبح ودع كل منهما صاحبه أحسن وداع ، وانصرفا وكل منهما يمشي خطوة ويلتفت إلى صاحبه حتى يغيبا . . . » .

وعلى ذلك انقضت السنون بعد السنين بفرقان ما يفرقان ثم يلتقيان هذا اللقاء ، حتى افترقا إلى غير لقاء إلا أن أخباراً أخرى في سيرة جميل تصرح بمبته عندها واضطجاعه معها ، وقد صرحت قصائده غير مرة بالتقبيل والعناق كما قال :

نجد علينا بالحديث وتارة تجود علينا بالرضاب من الثغر

وكما قال :

كأن فتيت المسك خالط نشرها
تقل به أردانها والمرافق
تقوم إذا قامت به من فراشها
ويغدو به من حضنها من تعانق
وأشباه ذلك في شعره غير قليل

وربما حلف لها في بعض شعره أنه لم « يمس جلدأ غير
جلدها » حيث يقول :

حلفت يمينا يا بشينة صادقاً
فإن كنت فيها كاذباً فعميت
إذا كان جلد غير جلدك مسني
وباشرنى دون الشعار شريت (١)

فهى كانت تتصل به وتهمه بالاتصال بغيرها ، وهو أيضاً
لم يكن يكتّم الشك فيها وإلقاء الريبة عليها ، وله في ذلك كلام
صريح يقول منه :

(١) الشعار : ثوب يباشر الجسد ، وشريت : أى أصبت بالشرى ، وهو
طفع مؤلم يظهر على الجلد .

تظل وراء الستر ترنو بلحظها
إذا مر من أترابها من يرونها
ويقول :

بثينة قالت يا جميل أربتنى
فقلت كلانا يا بثين مريب !
وأريتنا من لا يؤدى أمانة
ولا يحفظ الأسرار حين يغيب
بعيد على من ليس يطلب حاجة
وأما على ذى حاجة فقريب
أو يقول مبكثاً لها :

لما الله من لا ينفع الوعد عنده
ومن حبله إن مد غير متين
ومن هو ذو وجهين ليس بدائم
على العهد حلاف بكل يمين
ولست وإن عزت على بقائل
لها بعد صرم يا بثين صلينى
أو يقول مبكثاً نفسه :

وإنى لأستحي من الناس أن أرى
رديفاً لوصل أو على رديف

وأشرب رنقاً^(١) منك بعد مودة
وأرضى بوصل منك وهو ضعيف
وإني للماء المخالط للقذى
إذا كثرت واده لعيسوف
وبلغه يوماً أن بشينة استبدلت به حجة الهلالى فقال :
فيا بن إن واصلت حجة فاصرمى
حبالى وإن صارمته فصلينى
ولا تجعلينى أسوة العبد واجعلى
مع العبد عبداً مثله وذرينى
وحدث كما جاء فى سيرته أنه سافر إلى الشام مرة فاتصلت
بشينة بعده بحجة هذا ثم طلب منها حجة حين عاد جميل أن
تصارحه بتركها إياه وتغيرها عليه فقالت أو قيل على لسانها :
ألم تر أن الماء غير بعدكم وأن شعاب القلب بعدك حُلّت
فأجابها وقد علم ما تريد :
فإن تلك حُلّت فالشعاب كثيرة وقد نهلت منها قلوصى وعلت^(٢)

(١) الرنق : الكدر (٢) القلوصى : الطويلة القوائم من الإبل ،
والنهل أول الشرب والعلل الشرب للمرة الثانية

وكان لبثينة فتي من بنى عمها يتحدث إليها فاستراب به
 جميل وذهب يتحدث إلى غيرها ، « وجعل كل واحد منهما يكره
 أن يبدى لصاحبه شأنه » حتى غلبه الأمر فأقبل على البيت
 الذى كان يجتمع فيه معها وأقبلت هى إليه ولم تبرز له ،
 وجعل كل منهما يطالع صاحبه ، فأنشأ يقول :

لقد خفت أن يغتالى الموت عنوة
 وفى النفس حاجات إليك كما هيا
 وإنى لثنيى الحفيظة كلما
 لقيتك يوماً أن أبثك ما بيا
 ألم تعلمى يا عذبة الريق أننى
 أظل إذا لم أسق ريقك صاديا

فرقت له بثينة وقالت لمولاة لها كانت معها : ما أحسن
 الصدق بأهله ، ثم اصطلحا ، فسأله بثينة أن ينشدها قوله :

تظل وراء الستر تنو بلحظها
 إذا مر من أترابها من يروقها

فأنشدها إياها ، فبكت وقالت : كلا يا جميل ! ومن
 ترى أن يروقى غيرك ؟

* * *

فتلك جملة من الأخبار المتفرقة تفضى بنا إلى نتيجة ظاهرة
وهي أن الهوى بين جميل وبشينة لم يكن خلواً من نزعات
الحسد ولم يكن خلواً كذلك من الشك والريبة وبهمة الخيانة من
الجانبين . فماذا نقول في ذلك ؟ أنقول إنه تناقض ؟ . . . نعم
هو تناقض لا شك فيه ، ولكنه تناقض في طبيعة العاطفة نفسها
أو في حالاتها وتعبيراتها ، وليس هو مع ذلك بمانع حصولها ،
لأنها تحصل متناقضة الحالات والتعبيرات ، وكذلك العواطف
جميعاً لا تلتزم الدقة المنطقية في جميع الأوقات

فجائز جداً أن يكون جميل قد أعلن براءته في بعض شعره ،
وجائز أن يكون جميل قد كشف الحقيقة في بعضه الآخر ،
وجائز جداً أن يكون عذرياً فيما اعتقد ونوى ، وأن تخالطه
الترعات الحسدية فيما طغى به الهوى

ذلك كله جائز جداً وهو الذى يحصل كل يوم ولا نزال
نراه حينما التفتنا إليه

يحصل كل يوم أن ينوى الإنسان البراءة ويقع في الريبة
على غير وده ، ويحصل كل يوم أن يعبر عن هذا وعن ذاك
في حينه ولا يكون ذلك نافياً لما حصل بل مؤيداً لما تعودنا
حصوله كل يوم ، ولا سيما إذا علمنا أن صاحب القصة إنسان

لا يملك مشيئته ولا يزال محاولاً يضطرب في محاولاته ، فيود
حيناً ما يأباه في آخر ، ويستنكر في يومه ما كان ارتضاه في
أمسه ، ولعله يعود فينكره في غده

وإنما نحن نفرط في التصديق إذا فهمنا أن قبيلة من القبائل
تصف هواها بالبراءة التي لا يطرقها الزغل فيكون هذا الوصف
عاصماً لكل فرد من أفراد القبيلة ، مبطلا لكل خبر يخالف
تلك الصفة

ونفرط كذلك في التصديق إذا فهمنا أن الرجل ينوى
الأمانة فيكون معنى ذلك أنه لم يخالف الأمانة مختاراً أو مضطراً
إلى المخالفة ، ونحن متناقضون في هذا الفهم لأننا نلمس كل
يوم ما يناقضه ولا يستقيم في طريقه

فجميل وبشينة إنسانان كسائر الناس ، لا نحكم على
عمل من أعمالهما بالمناقضة وننفيه إلا إذا ناقض الطبيعة البشرية
وكذب ما تواتر من أخبار الناس

وكل ما يبدو لنا من أخبارهما أنهما كانا عاشقين يلج أحدهما
في عشقه ويقبل الآخر منه هذه اللجاجة

فكان جميل يتابع بشينة وكانت بشينة تقبل منه هذه المتابعة ،
لأنها تألفه وتؤثره على زوجها وتستعز بهيامه ونسيبه بين أترابها
ويجوز أنها عرفت غيره كما يجوز أنه عرف غيرها ، بل

يجوز أنها كانت تعتمد عليه في بعض حاجاتها كما تعتمد المرأة على الرجل الذي يهواها ، فكان الهوى بينهما على طباق الأرض ولم يكن بالهوى السابح في أجواز الفضاء ، وكانا إنسانين في كل حالة من حالاتهما كما يكون كل إنسانين بدويين في ذلك الزمن وفي تلك البيئة ، وعند ذلك لا نرى في أخبارهما ما يناقض الواقع أو يستبعده العقل أو يخالف ما يجري في علاقات الغرام .

أما الهوى العذرى فقصاراه أنه كان أمانة لهما وأمانة لكل قبيلة تعتر بالمنعة والصيانة في بناتها . إن جرى الواقع بما يخالفه فهو الواقع الذي يخالف أبداً كل عرف نصبوا إلى تحقيقه ، فما زال من دأب المثل الأعلى — أو من دأب الأمانى الاجتماعية — أنها تراد وتخالف ولا يزال الناس يريدونها ويخالفونها ، فلا ينفيها ذلك بل يدل على وجودها

وقد اتفقت أسباب شتى على توكيد هذا العرف في قبيلة بنى عذرة وجيرانها

فهي قبيلة بادية توكل إليها أحياناً حراسة الطرق بين الحجاز وما جاوره من شماله ، ففيها طبيعة البداوة أن تعتر بالمنعة والصيانة وألا تعترف بالشبهة في بناتها ومحارمها ، وفيها رغبة الحفاظ على هذه السمعة التي تحتاج إليها وتأتي أن تمس فيها ، وإلا ديس حماها وبطلت حراستها وتخطاها من يعتمد عليها

وهى مع هذا قبيلة تجاور الحجاز وتعرف الإسلام وتنكر ما ينكر من إثم وتفرض ما يفرض من حدود . فليس بمباح عندها أن تتصل المرأة بغير زوجها ، وليست بإباحة ذلك فعلا بمنعتها أن تنكرها وتبرأ منها فى حياتها الاجتماعية

ونحسب أن المنعة فى العشق أو الاستعصام فى العلاقات بين الرجال والنساء مصلحة طبيعية نوعية ، بل مصلحة « فزيولوجية » كما نستطيع أن نسميها فى العصر الحديث ، وليست بمصلحة اجتماعية فى القبيلة أو مصلحة دينية يوجبها الدين وحده ولا يوجبها شىء غيره على اتباعه

فإذا كانت آداب العشق هى الآداب التى تكشف الفضائل النوعية فى العاشقين معاً فالاستعصام لازم فيها والتجمل بالعفة ضرورة من ضروراتها ، لأن الاستسلام للشهوات ضعف لا يرشح صاحبه للبقاء ولا يدل على استحقاقه للحب والإيثار

وإذا قال اليوم بعض الثائرة المتعجلين إن العقائد القديمة هى التى كانت وحدها توجب الاستعصام على الفتيان والفتيات ، وإنهم خلقاء أن يحمدا الإباحة متى تحرروا من ربة العقائد القديمة ، فهؤلاء الثائرة المتعجلون لا يفقهون ما يقولون

إن الفتى والفتاة يجب أن يستعصما ولو لم يؤمنا بدين من الأديان الكتابية أو غير الكتابية ، لأنهما فى دور العشق بعضان

فضائل النوع فيهما ، وليس من فضائل النوع أن ينساق الفتى
أو الفتاة لأول غواية ، وأن تكون الشهوة هي كل ما يصيب
الواحد منهما من زميله .

فالطبيعة والدين معاً يدعوان إلى العصمة بين العاشقين
وينكران التدفع إلى الشهوات في غير مساك ولا ممانعة ، وخلق
أن يتأكد ذلك في القبيلة البدوية التي تهمها المنعة وتجاور كعبة
الدين وتجري على سنة الطبيعة ، فلا يضعف فيها ذلك التوكيد
إلا العارض يوهى الحوزة ويبيح المحذور ، أو على انحراف
ينغاضى عنه العرف ويزعم أنه لا يقره ولا يراه
فما اشتد من عصمة العرف بين العذريين فمعقول لا ينقض
ما توجهه السنن الطبيعية

وما جاء في سيرة جميل وبشينة خلافاً لذلك العرف أو وفاقاً
له فمعقول كذلك في خلافه وواقه ، لأن مخالفة العرف شيء
يقع ولا يمتنع ، وشيء له أسباب في الحياة الفردية كالأسباب
التي أوجبت العرف في الحياة الاجتماعية

وقد أجمالنا الإشارة إلى هذه الأسباب وتلك الأسباب ،
فخلص لنا منها أن جميلاً وبشينة عاشقان طبيعيان ، وأن ما جرى
بينهما ورؤى عنهما لا يناقض ما يكون ولا ما كان ، ولن يوجد
على غير ما وصفاً ، حيث وُجدا في تلك البيئة وفي ذلك الزمان .

أحسن الغزل

كان العرف الشائع بين نقاد الغزل في الشعر العربي إلى عهد قريب أن أحسن الغزل هو ما حسن فيه وصف المحبوب وأرّجى على الغاية في إسباغ المحاسن عليه . فمن جعل محبوبه عصمة في الجمال لا يمسّه نقص ولا يلحق به عيب فهو أغزل ممن وصفه فظهر من وصفه إياه أنه معيب في بعض نواحي خلقه وخلقه ، ومن قال إن محبوبه كالشمس أغزل ممن قال فيه إنه كالبدّر أو كوكب من كواكب الليل التي لا تبلغ مبلغ البدر والشمس في الإشراف والجمال

وهذا كما يرى من النظر اليسير خلط ذريع بين أمور كثيرة : خلط بين الاستحسان والعشق وهما مختلفان

لأن الاستحسان قد يأتي من العاشق وغير العاشق ، ولا يلزم من عشق الرجل امرأة من النساء أنها في نظره أجمل من كل امرأة رآها . فربما عرف عيوبها وعرف محاسن غيرها فأحبها بعيوبها ولم يحبب صاحبة المحاسن المفضلة في عينيه

وخلط بين هوى الشخصية وهوى الصفات . فمن شروط العشق الأول أنه يميز للعاشق شخصية واحدة بين جميع الشخصيات

التي يراها . فهو محل « الشخصيات » لفرد من أفراد الجنس في محل أعلى وأرفع من الصفات التي تعم بحسها كل من اتصف بها ، ويرجع هذا التمييز إلى أسباب كثيرة لا تقتصر على استحسان الجمال : منها تقارب العواطف ، ومنها المصادفة التي تجمع بين العاشقين في أحوال مهيأة للتعلق والالتفات ثم للألفة والهيام ، ومنها إحساس النقص في العاشق وما يتممه من مزايا المعشوق ، ومنها قدرة المعشوق على إعزاز مكانته في قلب العاشق وإن لم تكن له فتنة جمال

ثم هو خلط بين خصائص المعشوق وخصائص العاشق ... فالجمال شيء يخص المعشوق ويدل عليه . ولا يلزم من تفوق المعشوق في الصفات المحبوبة أن يتفوق العاشق في الصفات المحبة وأن يكون كلامه مثلاً لكلام المحبين

فمن المحقق إذن أن أحسن الغزل ليس هو أحسن الثناء على المحبوب ، وقد يكون غزلاً جيداً — أو شعراً غرامياً جيداً — وفيه هجو وإقذاع .

ثم ينبغي أن نذكر هنا أن العشق اضطراب وليس باختيار ، فالعاشق لا يلزم معشوقه لأنه يختار ملازمته بل لأنه لا يستطيع فراقه ولو أساء إليه . فإذا رأى منه السيئات وبقي على عشقه فذلك أدل على قوة العشق من البقاء مع الاستحسان والاختيار .

إذ لا فضل ولا قوة عشق لمن يبقى على الشيء لأنه مستحسن لديه ، وقد يكون فضل العاشق وقوة عشقه في عرفانه السيئات والسخط عليها ثم حبها مع هذا وذاك . فيكون هجاؤه أحياناً أدل على عشقه من ثنائه ، لأنه العشق الذي يغلبه على ما يريد فالمدرسة التي تجعل الثناء والاستحسان مقياس الإجابة في الغزل تجهل الغزل الجيد وتخلط بين جميع تلك الأمور

* * *

وهناك مدرسة أخرى تجعل « الرقة » والمبالغة فيها مقياساً للغزل والمتغزلين

فالذي يجعل قلبه موطئاً لقدم محبوبه أغزل ممن يجعل خده — ليس إلا — موطئاً لقدمه

والذي يبكي الليل والنهار أغزل ممن يبكي الليل ويكفكف دمه بالنهار

والذي يتذلل ويتضرع أغزل من الذي يثور ويتبرم ، والذي يشبه المرأة في كلامه معها هو على مذهبهم أصلح الرجال لعشق النساء !

وهذا الرأي من سخر الضعف والاضمحلال الذي ابتلى به الشرقيون في زمن من الأزمان

فالعشق أقوى غريزة تختلج بها البنية الإنسانية ، وهو لم

يخلق للذة العاشقين ونعيمهما حتى يكون كل ما فيه ليناً ونعمة ورقة ، ولكنه خلق لبقاء النوع واستدامة الحياة ، فربما ذهب العاشقان معاً ضحية له في بعض الأحيان ، وربما غلب فيه الجحاح والسورة فطغى جانب الغضب على جانب الرضى ، وجارت القسوة على الرقة ، وظهر المحبان في مظهر أشبه بصراع الأعداء منه بملاطفة الأوداء ، لأن كليهما مسوق مغلول ضعيف الحيلة في النجاء

وإنما نعرف أحسن الغزل حين نعرف مبعث الغزل من طبيعة الأحياء

فالغزل قبل كل شيء خاصة من خواص الذكور في الإنسان وفي جميع الأحياء

لأن الذكور هي التي تبتدئ الغزل وتتعارك في طلب الإناث ، وكل ما تصنعه الأنثى من دور طبيعي في الغزل أن تتعرض له وتلبيه وتستجيب إليه

ومتى بلغ الذكر سن التغزل فأية ذلك أن يغلظ صوته ويخشوشن وتشتد فيه دوافع السطوة والطراد

فالصفات التي تجعل الغزل صالحاً للإصغاء إليه والوقوف في موقعه هي الصفات التي تجعل الرجولة صالحة لما تستبق إليه ، وهي صفات ليس فيها تأنث ولا ضراعة ولا خفوت

وقد عرضنا لهذا البحث في مقال من مقالات كتابنا «الفصول» وعقبنا على رأى دارون فقلنا إنه تلمس «علة الطرب من ناحية الرقة والرخامة فعسر عليه الوصول إلى مصدرها وقال في كتابه أصل الإنسان : «لو سألت سائل ما بال بعض الألحان والأوزان يرتاح إليه الإنسان وأنواع من الحيوان ؟ لما كان في وسعنا أن نجيب عن ذلك إلا بجواب السؤال عن سبب ارتياحها إلى بعض المذوقات والمشمومات»

ثم قلنا إننا «إذا تلمسنا علة الطرب أولاً من جهة التأثير بقوة الصوت وجدنا الجواب عن ذلك السؤال سهلاً قريباً وأمكننا أن نجيب من يسألنا : لماذا يؤثر أعمق الأصوات ارتجافاً وتمويداً وأكثرها تنوعاً وتجويداً ؟ فنقول له : لأنه ترجمان العاطفة الشديدة والعاطفة من شأنها أن تبعث العاطفة ، ولا يزال الغناء كذلك حتى يتعلم الناس الكلام وينعقد الصوت ألفاظاً فيتدفق الغزل من النفس المحتدمة تدفقاً قوياً عارماً ويكون أجهر الرجال رغبة أهيجهم لرغبة المرأة وأبلغهم إلى نفسها كلاماً وأغلبهم على طبعها سلطاناً»

واستطردنا من ذلك إلى أن «العشق في طبيعته الأولى بعيد عن الرفق والسلاسة ، وإنما هو شواظ لاذع يلتف دخانه بناره ، ويلتهب شوقاً إلى وقوده ، فإن أصابه خمد وعاد الشاعر يترنم

بهناءة نفسه ويغبتط بالراحة من سورة طبعه ، وإن لم يصب
وقوداً كان نقمة لا تطاق . وأى رقة فى قول المجنون :

كأن فؤادى فى مخالب طائر
إذا ذكرت ليلى يشد به قبضا
كأن فجاج الأرض حلقة خاتم
علىّ فما تزداد طولاً ولا عرضاً

« إن قلب السامع لينقبض ، وإن صدره ليخرج لهذا
الوصف ، ومع هذا أى شعر أبرع من هذا الشعر وأى شاعر
أطبع وأعشق من المجنون ؟ »

« وليس العشق الصادق حين يشب أواره وتتأزم حلقاته
بالعاطفة التى يود صاحبها دوامها ويستريح إلى مناجاتها .
كلا وإنما هو غمة مطبقة يود المبتلى بها لو تنقضى لساعتها .
ويقوم فى نفسه عراك لا تهدأ ثائرته ولا يهنأ بالغلبة فيه ، لأنه هو
الغالب وهو المغلوب ، وكأنما يتزع نفسه من نفسه فيضيق ذرعاً
ويغوث من ركوب هذا النزاع : نزاع الحيرة التى يقول فيها
المجنون :

فوالله ما فى القرب لى منك راحة
ولا البعد يسلىنى ولا أنا صابر

ووالله ما أدري بأية حيلة
وأى مرام أو خطار أخطار

« وكان كاتيو لُس^(١) الشاعر الرومانى يدعو الآلهة قائلاً :
أيتها الآلهة ؛ إن كانت لك رحمة بالقلوب الصديعة
المشفية ، فبحق براءتى عليك إلا ما نظرت إلى عذابى ،
ورثيت لما بى ، ومسحت عنى هذا الوباء الماحق ، والبلاء
اللاحق ، وهذه اللوعة التى تسربت رعدتها فى عروقى فنفت
الهناءة عن قلبى »

وهى رعدة عروة التى يقول فيها :

وإنى لتعرونى لذاك رعدة
لها بين جلدى والعظام ديب
ووهلة المجنون التى يصفها بقوله :
دعا باسم ليلى غيرها فسكأنما
أطار بليلى طائراً كان فى صدرى

فإن طاوعته نفسه فى نزاعه ذاك وإلا حنق عليها ، وذهب

(١) Catullus شاعر لاتينى ولد فى فيرونا سنة ٨٤ قبل الميلاد ومات
سنة ٥٤ وهو من أكبر شعراء العشق فى اللاتينية ومن أمثال قيس وعروة وجميل
وكثير عندنا .

به الحب إلى كره ذلك المخلوق المسلط عليه ، الذى حرمه نعمة
الطمأنينة ، وجلب عليه هذا الشر ، وفرق بينه وبين نفسه ،
فيحب ويكره فى آن . وربما تمنى لحبيبه الموت لعل اليأس
منه أن يشفيه ، كما قال جنادة العذرى :

من حبها أتمنى أن يلاقينى
من نحو بلدتها ناع فينعاهها
كما أقول فراق لا لقاء له
وتضمر النفس بأساً ثم يسلاها
ولو تموت لراعتنى وقلت ألا
يا بؤس للموت ليت الموت أبقاها

« وكان كاتبولس يقول : « إني لا أكره وأحب . تسألنى
كيف ذلك ؟ من يدري ! ولكنى أحس بحقيقة هذا الأمر
وشدة برحائه . »

وكذلك كان يقول المجنون :

فيا رب إذ صيرت ليلي هى المنى
فزنى بعينها كما زنتها ليا
وإلا فبغضها إلى وأهلها
فإني بليلي قد لقيت الدواهيها

« وليس في نعت الحب بالداهية شيء من الرقة والدمائة ،
ولكنها حقيقة اتفق عليها شاعران ليس بينهما جامعة من ذوق
لغة ، أو مشرب قوم ، أو وحدة زمن . ولكنهما اجتمعا على
عاطفة إنسانية صادقة — بل اتفق عليها كل شاعر عالج من
العشق ما عالج هذه الشاعران

« وأحياناً يثوب العاشق إلى نفسه فيبدو له كأنه مختار في
شغفه وسلوته ، وكأن الأمر لا يعنى غيره ، فإن شاء سدر في
الحب وإن شاء صدف ، وإن شاء مضى مع قلبه وإن شاء
وقف . فلا ينشب أن يستيقن عجزه وقلة حيلته ، وإن الأمر
فوق يده ووراء مشيئته ، وهذا الذي يصفه جميل إذ يقول :

ألا قاتل الله الهوى كيف قادني
كما قيد مغلول اليدين أسير

« وهنا يخيل إليه أو إلى الناس أن قوة فوق قوة الإنسان
تقهره على مشيئته ، وأن رقية من رقى السحر أو طائفاً من
طوائف الجن يحول بينه وبين حرите . كما خيل إلى ذلك الشاعر
الروماني حين قال : أيتها الساحرة . . . لئن جملتك طلاسمك
في عيني لتعلمن أن الوجد أطول أجلا من الإجلال ، وإني
لأهواك ولست بعد إلا محتقراً لك ، وإن عد هذا ضرباً من الخبال »

وكما يقول المجنون :

هي السحر إلا أن للسحر رقية وإني لا ألقى لها الدهر راقيا

أو كما يقول جميل :

يقولون مسحور يجن بذكرها

فأقسم ما بي من جنون ولا سحر

وما الجنون والسحر إلا ما به ، وإلا فهل للعشق وصف
أصدق من أنه مزيج من جنون وسحر ؟ هل هو إلا جنون
يعتقل العقل ويهزأ بالحذر ويطير مع الأهواء ، فإن ثقلت عليه
النهي أزاحها عن عاتقه ومضى لطيته ؟ ألا يعرف العاشق
ما يوبقه ولكنه لا يحيد عنه ؟ ويبصر ما يشفيه وهو يأبى
أن يذوقه ؟

« ... ومن محاسن جميل وإخوانه من الشعراء الغزليين أمانتهم
في الإعراب عن النفس والبث بالعاطفة . انظر إلى قوله :

أرى كل معشوقين غرى وغيرها

يلدان في الدنيا ويغبتطان

وأمشي وتمشي في البلاد كأننا

أسيران للأعداء مرتهنان

« فهكذا ظن جميل ، وهكذا يظن كل عاشق يسمع بلذة
العشق ولا يرى أين هي ، فيحسب أنه هو الشقى وحده وأن
العشاق كلهم سعداء ، والحقيقة أن العشاق لا يخلو من الشقاء
أبداً ، ولو خلا منه لكان أشبه باللهو الذى يتشاغل به
البطالون والمجان . . . »

* * *

وأول ما يستخلص من هذه المشاهدات وهذه الحقائق أن
الغزل الحسن شيء لا يشترط فيه استحسان شمائل المحبوب
والمبالغة فى إطرائها ، وأنه كذلك شيء لا يشترط فيه الترفق
والشكوى وضراعة الخطاب ، وإنما هو التعبير الصادق عن
الحب كما خلقه الله فى نفوس الأحياء ، وهو بهذه المثابة شيء
أعظم من حياة الإنسان نفسه لأنه يتناول الغرائز النوعية كلها
والطبائع الكونية كلها ، ولا يقتصر على فرد من الأفراد فى
حالة من الحالات . فهو كالبحر اللجى الذى تفيه فيه العقول
ويتسع للنقائص ويعج بضروب من المفاجآت ليس لها انتهاء
هو ظفر حيوى لأنه استيلاء شخصية على شخصية أخرى
تنضوى إليها وتفتح لها أبواب الشعور بالدنيا على مصاريعها ،
فهو إذن غبطة وفرح وانتشاء
وهو تضحية لأنه مطلب نوعى تهمل فيه منافع الفرد ولذاته

وأمانيه ، فهو إذن يأس وشدة وبلاء

وهو لذة لأن الطبيعة تحتال على الفرد أحياناً لتوقعه في حبائلها فتريه لذته فيما تقوده إليه من أغراضها ، فهو إذن نعيم وطرب وترنيم

وهو حسرة لأنه يربط مسرات الدنيا كلها بمخلوق واحد لا ينوب عنه مخلوق آخر ، فهو إذن نعمة مهددة بالضيايع والقلق في كل حين

وهو عراك ووثام وظفر وتسليم ، واختيار وإكراه ، وعزة وذل ، وقسوة ورحمة ، وخشونة ولين

وهو كما خلق في الغرائز جارف عنيف ، وكما تعهدته الحضارة مهذب مصقول ، ولا يزال بين الغريزة والصقل قابلاً للوثبة المفاجئة من النقيض إلى النقيض ، لا ينقاد للعنان مرة إلا جذبه مرة أو مرات فكأنه منطلق بغير عنان

مثل هذا العيلم الزاخر من الحياة النوعية والحياة الفردية حتى أسخف الحق أن يحصره المتبطلون من مصطنعي النقد في قالب واحد أو هيئة واحدة أو لون لا يتبدل ، فمن حصره هذا الحصر وسامه هذا السوم فأقل ما يقال فيه إنه يلغوا بما لا يلويه

ونحن لا يفوتنا أن نستحضر هذه الحقيقة إلا فاتنا أن نحكم

الحكم الصحيح على كل غزل وكل عاطفة غزلية ، وكل علاقة
إنسانية تستند إلى طبائع الأحياء
فجميل — مثلا — أبطل المبطلين في عشقه وغزله عند
مدرسة « الاستحسان » أو مدرسة الرقة حين قال :

رى الله في عيني بشينة بالقذى
وفي الغر من أنيابها بالقوادح

لأنه سأل الله تشويه ما هو حسن في عيني حبيبته وثغرها
وهما أجمل ما يتمنى له الجمال في وجه محبوب ، ولأنه تجافى الرقة
كلها حين دعا عليها ذلك الدعاء الغليظ الذي يدعو به العدو
على ألد أعدائه

ولكن هذا البيت مع هذا أدل على عشق جميل من عشر
قصائد غزلية تفيض بالركة والثناء ، لأنه دليل على حب برح به
وحار في الخلاص منه وغلب على مشيئته فيه ، وظن أن البلاء
كله من جمال تلك العيون وجمال تلك الثنايا ، فلم يبق له من
حيلة إلا أن يسأل الله إتلاف هذا الجمال عسى أن يطبق بعد
ذلك سلوه والراحة من بلواه . أما قبل ذلك فلا حيلة له ولا طاقة
بالسلو والنسيان .

هذا أعمق الحب وأصدق الغزل ، ولك أن تقول إنه غزل

صادق من رجل سيء ، أو أنه غزل صادق من رجل طيب في
سورة البأس والحيرة ، فهذا حق لا غبار عليه . . أما أن يكون
مبطلا في عشقه وغزله لأنه تمنى تلك الأمنية ، فذلك من اللغو
الذى لا صدق فيه

ولك أن تقول إنها أمنية رجل تغلب عليه « الأنانية »
ويلتمس الراحة بما استطاع من وسيلة ولو كان فيها بلاء لمن
يهواه ، إلا أنك لا تنسى أنه تمنى تلك الأمنية لأنه أحب وضاق
ذرعاً بحبه ، وبلغ أقصى ما يبلغه العاشق من التعلق بالمعشوق
والعجز عن الفكاك من إرهاقه ، فهي إن شئت « أنانية »
ذميمة صادقة عنه . وهذا هو المرجع في قياس الشعر وتحقيق
العاطفة ، ولا مرجع سواه

وفي شعر جميل ما ينم على الأنانية لا وراء ، كقوله في
الرائية المشهورة :

فلا نعمت بعدى ولا عشت بعدها

. ودامت لنا الدنيا إلى ملتقى الحشر

فهو يتمنى البقاء معها إلى ملتقى الحشر ، ولكنه يأبى
عليها الحياة بعده ويسأل الله أن يموتا معاً إذا قضى الله أن
يعجل بموته

ولكنها « أنانية » لا تخص جيلا بين العشاق فيما نراه ،
 فما من عاشق يسره أن يتخيل معشوقته وقد نعمت بعده بحب
 غيره ، وما في هذه الأمنية من دليل على قلة الحب وكراهة
 المحبوب ، بل فيها دلائل على فرط الحب والاستغراق فيه ،
 ونحسب أن بثينة أرضاها هذا من دعائه فوق ما كان يرضيها
 دعاء السلامة لها والنعمة في هوى العشاق بعده ، لأنها تحس
 ببداهة الأنوثة أنه يسر ببقائها ونعمتها بعد موته لأنه قليل الغيرة
 عليها في الحياة وبعد الممات

وللشعراء العشاق من مدرسة جميل فلتات مستغربة من هذا
 القبيل ، أو لعلها أغرب جداً في هذا الباب من فلتات جميل ،
 ولا سيما الفلتات التي أحصوها على تلميذه الأكبر كثير
 بن عبد الرحمن .

فقد أصبح كثير أضحوكة الأضاحيك بين الشعراء
 والنقاد ، لأنه قال :

ألا ليتنا يا عز من غير ريبة

بغيران نرعى في الخلاء ونعذب^(١)

(١) العنوب من اللواب : القائم الذي يرفع رأسه ولا يأكل أو يشرب .

كلانا به عُرٌّ فمن يرنا يَقُـلْ
 على حسنها جربي تعدّي وأجرب
 إذا ما وردنا مهـلاً صاح أهله
 علينا فما ننـفك نـرى ونضرب
 وددت وبيت الله أنك بـكرة
 هجان وإني مُصعب ثم نهـب^(١)
 نكون بـعيرى ذى غنى فيضيفنا
 فلا هو يرعانا ولا نحن نُطلب
 وعيـره نظراءه حين شاعت هذه الأبيات فقالوا له :
 « ويلك ! تمنيت لها ولنفسك الرق والحرب والرمى والطرد
 والمسـخ ، فأى مكروه لم تتمن لها ولنفسك ؟ لقد أصابها منك
 قول الأول « معاداة عاقل خير من مودة أحمق ! »
 وصدقوا والله ما من أمنية هي أدعى إلى الضحك والسخرية
 من هذه الأمنية التى سأها كثير . ولكن من قال إن كثيراً
 لم يكن مضحكاً وسخرة حتى يستغرب منه أن يتمنى هذه الأمنية ،
 وأن ينظمها فى تلك الأبيات وهو صادق التعبير ؟
 فقد وصفه بعضهم فقال : « رأيت فى الطواف من قال لك
 إنه يزيد على ثلاثة أشبار فكذبـه ! » ووصف بعض عشرائه

(١) البكة من الإبل الصغيرة والمصعب الفحل الذى يراح من الركوب

حماقته فقال : « إن كثير لقيه فسأله : ماذا يقول الناس عني ؟
فأجابه : إنهم يزعمونك المسيح الدجال . . . قال كثير : عجباً .
والله إني لأحس في عيني بعض الضعف منذ اليوم !

فمثل هذا الرجل يستغرب منه إذا غلبته العاطفة أن يعبر
عن نفسه فلا تفلت منه أمثال تلك الآيات ، فهذا موضع
الغربة وليس موضعه أنه يصدق في التعبير عن ذات نفسه كما
صدق في التعبير عما تمناه .

عاشق زرى المنظر مستحقيق العقل ضعيف الحيلة يزاحمه
الناس على محبوبة ويخشى أن يغلبه كل مزاحم عليها لأنه أجمل
منه منظرًا وأقدر على الإغواء والإغراء ، ثم تنغصه الوسواس
وينظر في وسيلة يأمن بها على صاحبته فيتركها الناس له ،
ويتركونه لها ، فلا يجد من وسيلة قط غير ابتلاء عزة بالبلاء الذي
يزهّد الناس فيها ويقصرها على حبه وولائه دون غيره ، فيبتعد
الناس عن عزة وتبتعد هي عنهم ضرورة لا محيد لها ولا لهم
عنها . أمّا أن يبعدهم هو أو يبعدها فقد علم أنه لا يستطيع
ولا يملك من فتنة ولا حيلة تعينه على ما يريد . فإذا هو صانع ؟
أتركها ؟ إنه لا يقوى على تركها . . . أحميها ؟ إنه لا يقوى
على حمايتها . فلا عجب إذن أن يخطر له ذلك الخاطر ، وأن
يتمنى الشيء الوحيد الذي يصون له محبوبة بمأمن من الغواية

والمزاحمين ، وهو ما تمنناه وصدق في تمنيه

وينحيل إلينا أن كثيراً قد رأى البعيرين الموصوفين رؤية
العيان لأنه منظر لا يندر أن يصادفه الناظر مرات حيث عاش
كثير ، فوقع له أن هذين البعيرين سعيدان حيث يسرحان
ولا يطلبهما مالك ولا راع ، ولا هما سائلان عن علف وشراب .
فتمنى السعادة على هذا المنوال ، وشهدا بالعين قبل أن يتمناها
في الخيال

أقول إنه سخيّف ؟ نعم هو سخيّف لا مرء ، ولكنه محب
يصدق في التعبير عن حبه ويدل عليه دلالة لا اصطناع فيها
فلا محل للخلط إذن بين سخيّف القائل وصدق ما قال ، ولا محل
كذلك لاتهم عاطفته بما كان من رداءة تمنيه ، لأنه أحب
فنعصه الحب وحيل بينه وبين التماس الراحة من غير هذه الطريق
وها نحن أولاء قد رأينا عشاقاً يتمنون الموت لمن يحبون ،
وعشاقاً يتمنون التشويه لمن يحبون ، وعشاقاً يتمنون الخلاص
ممن يحبون ، ورأينا أنهم أحبوا وصدقوا التعبير عن الحب وأن
عيبت عليهم الأثرة أو الغفلة أو الجفاء ، فلا غرابة إذن في شعر
غرامى تعوزه الضراعة والشكاية أو يعوزه الثناء والاستحسان ،
ولا شرط للغزل الصادق إلا التعبير عن الشعور الذي يختلج في
قلب صاحبه كائناً ما كان الرأي فيه وفي خلقه وعقله وأمانيه

مكانته في الصناعة الشعرية

نشأ جميل نشأة أدبية صالحة لموطنه وعصره ، وتخرج في مدرسة الشعر كأحسن ما يتخرج الشاعر بالحجاز في القرن الأول للهجرة ، فكان كما جاء في كتاب الأغاني « راوية هذبة بن خشرم ، وكان هذبة شاعراً وراوية للحطيئة ، وكان الحطيئة شاعراً راوية لزهير وابنه » فاجتمعت له الرواية والشعر سلسلة من أساتذة فحول مشهود لهم بين الرواة والشعراء .

وكان بعض المشهورين بعلم الشعر في زمنه يفضلونه على الشعراء كافة ويقولون إنه أشعر أهل الإسلام والجاهلية .

فروى عن نصيب الشاعر أنه قال : قدمت المدينة فسألت عن أعلم أهلها بالشعر فقبل لي : الوليد بن سعيد بن أبي سفيان الأسلمي ، فوجدته بشعب سلع مع عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن أزهر . فإنا بالحلوس إذ طلع علينا رجل طويل بين المنكبين ، طُوال ، يقود راحلة عليها بزة حسنة . فقال عبد الرحمن بن حسان لعبد الرحمن بن أزهر : يا أبا جبير : هذا جميل ؛ فادعه لعله أن ينشدنا . فصاح به عبد الرحمن : هيا جميلُ هيا جميلُ ! فالتفت فقال : من هذا ! فقال : أنا

عبد الرحمن بن أذهر . فقال : قد علمت أنه لا يجترئ على
إلا مثلك . فأتاه فقال له : أنشدنا . فأنشدهم :

« نحن منعنا يوم أول^(١) نساءنا » إلى آخر الأبيات . . .

ثم قال له : أنشدنا هزجاً . فسأل : وما الهزج ؟ لعله هذا القصير !
قال : نعم . فأنشده :

رسم دار وقفت في ظلله كدت أقضى الحياة من جلله

حتى فرغ من القصيدة ، ثم اقتاد راحلته مولياً

« فقال ابن الأذهر : هذا أشعر أهل الإسلام . فقال ابن
حسان : نعم والله ، وأشعر أهل الجاهلية . والله ما لأحد منهم
مثل هجائه ولا نسيبه . فقال عبد الرحمن بن الأذهر : صدقت ! »
ثم قال نصيب : « وأنشدت الوليد فقال لي : أنت أشعر
أهل جلدتك ، والله ما زاد عليها »

ذلك رأى المتأدبين المشهود لهم بعلم الشعر في عصره ،
ولعلهم غلبوا فيه النظر إلى العشق والنسيب على النظر إلى فنون
الشعر كله ، ففي هذا ولا ريب مجال لمن يشاء أن يقدم جيلاً
على شعراء الجاهلية وشعراء الإسلام إلى زمانه . إذ ليس في

(١) واد على طريق البهامة إلى مكة .

الجاهلية من اشتهر بالعشق والنسيب خاصة كما اشتهر بعض الشعراء في القرن الأول للهجرة ، وليس في شعراء القرن الأول للهجرة من يرتفع على المقابلة بينه وبين جميل في أغراضه ومعانيه . فإذا قال القائل على هذا الاعتبار : إن جميلاً أشعر أهل الإسلام والجاهلية ، فليس في قوله غلو كبير ، وإن جاز فيه الخلاف .

ومع تعدد الآراء في هذا يمكن الاتفاق على أن جميلاً كان ملحوظ المكانة بين شعراء زمانه وكان معترفاً له بالإجادة والأستاذية إلى ما بعد زمانه ، كما يظهر ذلك من نظر الشعراء المبرزين إلى معانيه واقتباسهم من أقواله .

لحق الفرزدق كثيراً بقارعة البلاط — بالمدينة — فقال له الفرزدق : يا أبا صخر ! أنت أنسب العرب حين تقول :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلي بكل سبيل

يعرض له بسرقة من جميل حيث يقول :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلي على كل مرقب

فأجابه كثير : وأنت يا أبا فراس أفخر الناس حين تقول :

تري الناس ما سرنا يسرون خلفنا

وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

وهذا البيت أيضاً مسروق من قول جميل :

نسير أمام الناس والناس خلفنا
فإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

وهذان شاعران بارزان من أبناء عصر جميل يعترفان فيما بينهما بالاعتباس من معاني جميل ، وهو اعتباس لا يخلو من شهادة وإكبار ودلالة على مكانة ملحوظة بين الشعراء .
وقد بقيت له هذه المكانة إلى ما بعد عصره عند أناس من شعراء العصر العباسي في طبقة الفرزدق وكثير . فروى أن ابن الحسين المهلبى لى أبا العتاهية فاستنشدته من شعره فأنشدته :

يا صاحب الروح ذى الأنفاس فى البدن

بين النهار وبين الليل مرتين
لقلما يتخطاك اختلافهما حتى يفرق بين الروح والبدن
لتجذبني يد الدنيا بقوتها إلى المنايا وإن نازعتها رسي^(١)
لله دنيا أناس دائبين لها قد أرتعوا فى رياض الغنى والفتن
كسائمات^(٢) رواع تبتغى سمنا وحتفها لودرت فى ذلك السمن

(١) الرسن : حبل فى رأس الدابة .

(٢) السائمة : الماشية والإبل الراعية .

قال ابن الحسين المهلبى : فكتبها ثم استنشدته من شعره
 فى الغزل فقال : يا ابن أخى ! إن الغزل يسرع إلى مثلك ،
 فقلت له : أرجو عصمة الله جل وعز ، فأنشدنى :

كانها من حسنها درة أخرجها اليمُّ إلى الساحل
 كأنَّ في فيها وفي طرفها سواحرأ أقبلن من بابل
 لم يبق منى حبها ما خلا حُشاشة في بدن ناحل
 يا من رأى قبلى قتيلا بكى من شدة الوجد على القاتل

فقلت له : يا أبا إسحاق ! هذا قول صاحبنا جميل :
 خليليَّ فيما عشنا هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

فقال : هو ذاك يا ابن أخى ، وتبسم !
 وأقل ما يدل عليه هذا وأشباهه أن شعر جميل كان يقرأ
 ويستحسن ويقتدى به فى معناه ، وأنه ينال هذا الاستحسان
 عند فحول الشعراء فضلا عن الشُّدَّة المبتدئين ، وهذه مكانة
 « الأستاذية » لا مرأى .

وقد يزكى هذه المكانة أن الذين شهدوا بها كان بينهم أناس
 عرفوا بالخيلاء وشدة الاعتداد بالقدرة الشعرية بين النظراء ،
 ومنهم من كان يستحق لفرط خيلائه كالشاعر العاشق كثير ،
 وهو أخرى الناس بمنافسة جميل .

فمن خيلائه أن عمر بن أبي ربيعة والأحوص ونصيباً اجتمعوا في مكان فأرسلوا إليه راويته يدعونه إليهم ، فأكبر الأمر وسأل صاحبه متبرماً : أما كان عندك من المعرفة بي ما كان يردعك عن إتياني بمثل هذا ؟ . . قل لابن أبي ربيعة إن كنت قرشياً فأني قرشي ، وإن كنت شاعراً فأنا أشعر منك . . . قال راويته : هذا إذا كان الحكم إليك . فقال : وإلى من هو ؟ ومن أولى به مني ؟ . . ثم رجع الرسول إليهم فأخبرهم بما سمع منه ، فضحكوا ثم نهضوا معه فدخلوا عليه في خيمة فوجدوه جالسا على جلد كبش ، فما أوسع لهم من مجلسه !

فهذا الشاعر على خيلائه كان لا يني قائماً قاعداً بالشهادة لجميل وتفضيله على نفسه حيث يسأل وحيث لا يسأل وهو مزهو بالسماع منه والرواية عنه والتلمذ عليه .

سأله نصيب : أجميل أنسب أم أنت ؟ فقال : وهل وطأ لنا النسب إلا جميل ؟

وسئل مرة أخرى فقال : وهل علم الله عز وجل ما تسمعون إلا منه ؟

وربما نقلوا عن كثير في صدد إعجابه بجميل ما نستبعد صدقه سواء قاله أو لم يقله . كزعمهم أنه ذكر يوماً أنه يروى لجميل ثلاثين قصيدة لا يعرفها الناس وأنه أمات له ألف قافية

لينتحلها ويدعيها لنفسه . فإن ميدان جميل لا يتسع لألف قافية تسرق . ولا لثلاثين قصيدة تسقط من جملة شعره وهو محدود الأغراض متشابه الأنماط . وإنما يفهم من هذا الكلام إن صدر من كثير أن فخره بالرواية عن جميل أكبر من فخره بشعره الذى يُنسب إليه ، ولولا مكانة جميل عنده وعند الناس لما وقع فى خاطره وجرى على لسانه هذا الفخار .

* * *

ولا نحسب أن أحداً ناظر جيلاً على قصد منه - أو على غير قصد - كما ناظره عمر بن أبى ربيعة الذى كان كثير يستطيل عليه .

فقد كانت المناظرة بينهما طرائق متعددة لا طريقة واحدة ، فكان كلاهما شاعراً وكلاهما مشهوراً بالنسيب وكلاهما إماماً لأمثاله من المتغزلين . فكان جميل فى عصره إمام العشاق المقصورين على معشوقة واحدة ، وكان عمر بن أبى ربيعة فى عصره أمام المشغوفين بمغازلة النساء ، وكانا فوق هذا التقابل فى شتى الطرائق متقابلين فى تمثيل البداوة والحضارة . وفى عزة النسب وعراقة الأصول . فهما متناظران يقترنان فى الميزان كلما عرض الناقد لشعراء ذلك الزمان ، وقد تلاقيا وتناشدا وقيل إن جيلاً سمع منه اللامية التى فيها :

جرى ناصح بالود بيني وبينها
فقربنى يوم الحصاب إلى قتلى

فقال : هيات يا أبا الخطاب ! لا أقول والله مثل هذا
سجيس^(١) الليالى ، وما خاطب النساء مخاطبتك أحد ، وقام
مشمراً

ونمى نحن إلى قبول هذه الرواية لأن الشاعرين قد تشابها
في معان هي أقرب إلى نمط ابن أبي ربيعة منها إلى نمط جميل
فقال جميل :

إذا خدرت رجلى وقيل شفاؤها
دعاء حبيب كنت أنت دعائها
وقال عمر :

إذا خدرت رجلى أبوح بذكرها
ليذهب عن رجلى الخلور فيذهب

وقال أيضاً :

أهم بها في كل ممسى ومصبح
وأكثر دعواها إذا خدرت رجلى

وهو من القصيدة التي سمعها جميل وشهد من أجلها لعمر
بالسبق في مخاطبة النساء ، والبيت أقرب إلى كلام الذين تعودوا
محادثة النساء منه إلى كلام العاشق المقصور على معشوقة واحدة
كذلك قال جميل :

وهما قالتا لو أن جيلا
عرض اليوم نظرة فرآنا
بينما ذاك منهما رأيانى
أعمل النص سيره الزفيانا^(١)

وهو أشبه بقول عمر وبفعله أيضاً وخلائقه حيث يقول :

بينما يذكرنى أبصرنى دون قيد الميل يعدو بي الأغر
قلن تعرفن الفتى قلن نعم قد عرفناه وهل يتخى القمر
وقد قيل إن عمر بن أبي ربيعة أنشد بثينة تلك الأبيات
الثلاثة من كلام جميل فقالت : « إنه استملى منك فما أفلح ،
وقد قيل : اربط الحمار مع الفرس فإن لم يتعلم من جريه تعلم
من خلقه »

ومن قصائد جميل المشهورة رائية مطلعها :

(١) الزفن : الدفع الشديد والضرب بالقدم كما يفعل الراقص .

أغادِ أخى من آل سلمى فبكر
أبين لي أغادِ أنت أم منهجر

وهو كمطلع عمر في قصيدته الرائية التي هي أفضل شعره
حيث قال :

أمن آل نعم أنت غاد فبكر
غداة غد أم راثع فنهجر

والقصيدة كلها مما قيل إن جيلا سمعه من شعر عمر فأقر له
وأثنى عليه

وفي الديوانين قطعة جيمية رويت لعمر ورويت لحميل
منها هذه الأبيات :

قالت وعيش أخى وحرمة والدى
لأنهن الحى إن لم تخرج
فخرجت خيفة قولها فتبسمت
فعلمت أن يمينها لم تخرج
فلثمت فاعها آخذاً بقرونها
شرب التزيف يبرد ماء الحشرج

وهو كلام فيه من عبث المجون والمماحكة بين عمر

وصويحباته ، وليس فيه من جد العشق الذى كان بين جميل وبشينة ، ولا هو مما يوافق فخر جميل باقتحام المنازل والمناجزة لمن يرصدون له بالسيوف حول بيت بشينة ، ومنهم أبوها وأخوها كما جاء فى بعض الأخبار ، وتكرر فى سيرته على روايات مختلفات

فالذى نرجحه أن جيلا كان يحب أن يحكى عمر فى بعض ما قال ، ولكنتا لا نرجح هذا الترجيح لنخلص منه إلى تقديم عمر على جميل فى الصناعة الشعرية ، فهما فيها متكافئان يختلفان حيثما اختلفا فى المزاج والحليقة ولا يدعو ذلك إلى تفضيل أحدهما على الآخر فى صناعة النظم والتعبير ، وإنما نحمل اقتباس جميل من عمر على اقتداء البدوى بأهل الحضارة حيثما كان وكانوا ، ولا سيما إذا كان الحضرى شاعراً مقبول الشعر بين العلية والمترفين من أبناء المدينة وبناتها ، وهم أهل الطبقة التى تروع من البدو خاصة من كان قريباً إلى معيشة المدن غير منقطع لحشونة البادية ، على مثال جميل

* * *

فهما إذن فى الشعر ندان متكافئان ، جميل وعمر بن أبى ربيعة . وقد خرجا معاً بالغزل كله من ناحيته فى القرن الأول

للهجرة بأرض الحجاز بين حاضرة وبادية ، فلو زال شعر
الغزل في تلك البيئة وفي ذلك العصر جميعاً فلم يبق منه إلا ما نظم
هذان الشاعران لأغنانا عن كل ما عداه في الدلالة على حالة
المرأة وحالة النساء كما ينعتها العاشق وزير النساء

وقد يبدو على شعر جميل إذا قوبل بشعر عمر أنه أفحل
وأجزل وأبلغ في الصناعة الشعرية وأجمل ، وذلك فيما يبدو لنا
التباس بين فحولة المزاج وفحولة الشعر لا يثبت على التحييص .
فمن المألوف أن يظهر الجحد في شعر العاشق الذي ينسب بامرأة
واحدة ويعيرها كل قلبه وهواه ولا يظهر مثل هذا الجحد في شعر
الرجل الذي يقضى زمانه كله في التحدث إلى النساء والتنقل
بينهن ، وقلَّ أن يسلم رجل كهذا من اصطناع التأث ولو لم
يكن مطبوعاً عليه ، فيسرى التأث إلى كلامه وتتوارى منه
قوة الفحولة التي تقترن بالجحد حيث كان

ومع هذا لم يسلم جميل ممن يأخذ عليه التأث في نصف
بيت هو قوله :

ألا أيها النُّوم ويحكموا هبوا

أسائلكم هل يقتل الرجل الحب

فالشطر الأول كما قال صالح بن حسان « أعرابي في

شملة « والشطر الثانى « منحت يتفكك من منحنى العقيق ! »
ولكن نصف بيت أو مثنى من الأبيات ليس فيها أعرابى
واحد فى شملة ، ومعظم أبياتها هودج تسفر عن حسان مدلالات
وأخذان حسان مدلالات ! وذلك ديوان ابن ربيعة فى جملته
على التحقيق .

ويشبه الالتباس بين فحولة المزاج وفحولة الشعر التباس
آخر يعرض لكثير من المعجبين بنسب جميل ، فهو عندهم
إمام الشعراء لأنه إمام المحبين ، وقد سئل عنه نصيب فقال :
ذاك إمام المحبين ، وهل هدى الله عز وجل لما ترى إلا بجميل ؟
وجائز أن يكون صدق الحب سبباً من أسباب جودة
الشعر الذى يعبر عنه ، ولكن صدق الحب وجودة التعبير
يظلان بعد هذا شيئين مختلفين ، فيصدق الحب ولا يجيد
الشعر ، ويجيد الشاعر ولا يبلغ مبلغ ذلك الحب الصادق فى
وجدته وشوقه ووفائه . . . إن أحدهما لسبب للآخر ونعنى الحب
والتعبير ، ولكنهما قد يفترقان كما يتفقان .

ولا يزال الحكم على عشق جميل وغزل جميل وشعر جميل
يتطلب الحكم على ثلاثة أشياء لا على شىء واحد ، وإن لم
يكن من الضرورى أن تتناقض هذه الأشياء .

فالذين قالوا إنه أشعر أهل الإسلام والجاهلية لأنه أصدق

المحيين يخطئون ، إذ ربما ثبت له أنه أصدق من أحب في زمانه ولم يثبت له أنه أصدق من تغزل فضلاً عن هجا ومدح كما أراد بعض النقاد في زمانه أن يقول .

وحقيقة الرأي الذى يدل عليه شعره فيما نعتقد أنه كان شاعراً يجمع بين البلاغة والسهولة ، ويرتقى في الصناعة الشعرية مرتقى لا يعلو عليه شاعر من أبناء عصره ، وهم على الإجمال فطريون في هذه الصناعة لهم مزايا الفطرة وعيوبها في آن ، ولا سيما العيوب التى لها اتصال بكل صناعة من الصناعات .

ومن مزايا الفطرة الصدق والبساطة وقرب الأداء ، ومن عيوبها النقص والسذاجة وقلة الإتقان . ومن رأينا أن شعراء الجاهلية وشعراء القرن الأول للإسلام كانوا جميعاً أوفر الشعراء حظاً من مزايا الفطرة وعيوبها على السواء . فهم أصحاب معنى مستقيم ولغة قوية وشعور لا بهرج فيه ولا التواء ، وهم إلى جانب هذا مبتدئون متعشرون في صوغ الشعر لم يصلو بالقصيدة ولا بالأغنية إلى مبلغ الإتقان ووجدة المدلول ، ولعلهم لم يبلغوا في ضرب من الشعر مبلغه من الإتقان غير الرجز ، لأنه مفكك بطبيعته لا يحتاج إلى تنسيق وانسجام .

وما زال الإتقان الصناعى يزداد والشعور الفطرى ينقص حتى تناهيا زيادة ونقصاً في أواخر عهد العباسيين ، فأصبح

الإفراط في الصناعة بهرجاً والإفراط في ضعف الشعور الفطري تكلفاً واصطناعاً ، وتلاقى هذا وذاك في الغثاء المزيفة التي لا هي صناعة جيدة ولا فطرة جيدة ، ولكنها مسخ للصناعة والفطرة لا خير فيه .

فالشعراء العباسيون مثلاً أجود صناعة من الشعراء الأمويين والمخضرمين ، وأناى منهم عن استقامة الفطرة وبساطة التعبير ، ولا استثناء لأحد من الأمويين والمخضرمين والجاهليين في ضعف الصنعة الذي يأخذ كل منهم بنصيب منه ، حتى شعراء المملوكات .

وشأن جميل في هذا شأن غيره من أبناء عصره وسابقيه : يأتي بالكلام السهل البسيط لأن معناه سهل بسيط ، ولأنه يملك القدرة الفنية التي يعمد بها إلى المعاني المركبة فتسلسل له فإذا هي مجلوة في ثوب من البساطة يخدع السامع حتى ليحسبه خلواً من كل تركيب .
وقلما تجاوز الأبيات في القصيدة الواحدة واعتمد الإطالة إلا تعثر والتفت بمن يتحدث عنه بين الخطاب والغياب وضمير المفرد وضمير الجمع في نفس واحد . كما قال :

فإن تبني بلا جرم ولا ترة^(١)

وتولعى بي ظلماً أى إيلاع

فقد يرى الله أنى قد أحبكم
 حباً أقام جواه بين أضلاعى
 لولا الذى أرتجى منه وآمله
 لقد أشاع بموتى عندها ناعى
 أو كما قال :

إلى الله أشكو لا إلى الناس حبها
 ولا بد من شكوى حبيب يروّع
 ألا تتقين الله فيمن قتلته
 فأمسى إليكم خاشعاً يتضرع

وقد يخطيء في قواعد اللغة أو يتجاوز في أبيات غير قليلة ،
 منها قوله في قصيدة من أشهر قصائده :

فإن لم تكن « تقطع » قوى الود بيننا
 ولم تنس ما أسلفت في سالف الدهر
 فسوف يرى منها اشتياق ولوعة
 يبين وغرب من مدامعها يجرى
 ومنها قوله :

ولو أن « داع » منك يدعو جنازتى
 وكنت على أبدى الرجال حييت

وهو في هذا وعمر بن أبي ربيعة وغيرهما من شعراء عصرهما
سواء أو متقاربون

* * *

وفي حيز هذه القدرة الفنية يبدع غاية الإبداع الذي يتاح
لشاعر قديم أو حديث ، فلا يقول شاعر في البيت والبيتين
أو الأبيات القلائل أبلغ من قوله في تعذر نسيان الحبيب :

ولو تركت عقلى معى ما طلبتها
ولكن طلايبها لما فات من عقلى
أو قوله لمن يقدحني في صاحبته ليحللن عنده في محلها :
ولرب عارضة علينا وصلها
بالحد تخططه بقول الهازل
فأجبتها بالرفق بعد تسر
حبي بشينة عن وصالك شاغلى
لو أن في قلبي كقدر قلامه
فضلا وصلتك أو أتك رسائلى
ويقلن إنك قد رضيت بباطل
منها فهل لك في اعتزال الباطل
ولباطل ممن "أحب حديثه
أشهى إلى من البغيض الباذل

أو قوله في حيرته بين حبه لغيرها وحب غيره من المحبين :

سلا كل ذي ود علمت مكانه
وأنت بها حتى الممات موكل
فما هكذا أحبيت من كان قبلها
ولا هكذا فيما مضى كنت تفعل

أو قوله في الفراق :

كأني سقيت السم يوم تحملوا
وجدت بهم حاد وحان مسير
على أنني بالبرق من نحو أرضها
إذا قصرت عنه العيون بصير
وإني إذا ما الريح يوماً تنسّمت
شاميةً عاد العظام فتور
ألا يا غراب البين لونك شاحب
وأنت بروعات الفراق جدير
فإن كان حقاً ما تقول فأصبحت
همومك شتى والجناح كسير
ودرت بأعداء حبيبك فيهم
كما قد تراني بالحبيب أدور

أو قوله في تمنى الصلة الدائمة بصاحبه حيًا وميتًا ثم منحه
على الحاجة الحب بعد هذا :

أعوذ بك اللهم أن تشحط النوى
ببثنة في أدنى حياتي ولا حشري
وجاور إذا ما مت بيني وبينها
فيا حبذا موتي إذا جاورت قبري
علمتك من حب ! أما منك راحة
وما بك عني من توان ولا فتر ؟

ولهذه الأبيات الأخيرة لا نستغرب مبالغته التي تندر في
شعره وشعر أبناء عصره حيث يقول :

إذا ما دنت زدت اشتياقاً وإن نأت
جزعت لنأى الدار منها وللبعد
أبى القلب إلا حب بثنة لم يرد
سواها وحب القلب بثنة لا يجدى
تعلق روى روحها قبل خلقنا
ومن بعد ما كنا نطافا وفي المهد
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا
وليس إذا متنا بمنتقض العهد

ولكنه باق على كل حالة

وزائرنا في ظلمة القبر واللحد

ففي هذه المبالغة مسحة من شطحات ابن الفارض وأضرابه،

ولكن المبالغة هنا تتسلسل وتتدرج وتنمو على جذورها حتى

تبلغ ذروتها ولا غرابة فيها ولا تناقض بين أعلاها وأدناها .

فمن قال البيت الأول قال الأبيات التي تليه كما يصعد النفس

مطيلاً فيه حتى يستوفيه

إلا أن الذي يأباه الذوق والعقل أن تنسب إلى جميل أبيات

كهذه الأبيات التي ضمت إلى ديوانه :

خليلى إن قالت بثينة ماله

أتانا بلا وعد ؟ فقولا لها : لها

أتى وهو مشغول لعظم الذى به

ومن بات طول الليل يرعى السها ، سها

بثينة تزرى بالغزاة في الضحى

إذا برزت لم تبق يوماً بها بها

لها مقلة كحلاء نجلاء خلقة

كأن أباهما الظبي أو أمها مها

دهتى بود قاتل وهو متلى

وكم قتلت بالود من ودها دها

فهذا كالاتقال من الشملة العربية إلى ثياب المرافع قبل أن تخلق المرافع بقرون ، ولو جاز أن يقول جميل مثل هذه الأبيات مرة لوجب أن تتكرر نظائرها في قصائده هنا وهناك ، لأن المحسنات من هذا الطراز عادة تجر لا محالة إلى الإدمان وقياساً على هذا كله ما جاوز الصدق الفطري والبلاغة السهلة والحد في وصف الشعور ، فهو منحول له وليس بالنسج الذى يندس بين لحمته وسداه

إنما الرجل ابن زمانه في معناه وصناعته ، وله من الإمامة بين شعراء العشق في ذلك الزمان مكان لم يناع فيه ، لأن عيوبه أقل من عيوبهم ومزاياه أظهر من مزاياهم ، وشعره في جملة يجمع خير ما قالوه

وهنا يحسن بنا أن نقيد « خير ما قالوه » بما قالوه في النسب دون غيره ، فالحق أنه لم يأت بطائل في الهجاء ولو بالقياس إلى معاصريه ، أو لعل الذى نظم في هذا الباب ورجع به على الشعراء في رأى نقاد عصره قد ذهب به الزمن ولم يصل إلينا مع سائر شعره ، وهو ظن ضعيف

مزاجان

قدّمنا في الفصل السابق أن شعر جميل إذا قوبل بشعر
عمر يبدو أنه أفحل وأجزل ، وأنه أبلغ في الصناعة وأجمل .
ثم قلنا إن هذا فيما يبدو لنا « التباس بين فحولة المزاج وفحولة
الشعر لا يثبت على التمهيص »

ومن الحسن أن نعرض ببعض الوصف والتمييز لمزاج الشاعر
الذى تتعلق به هذه الفحولة الفنية . فجملة ما يقال فيه
— بسياق هذه المقابلة — أنه كان يحتاج إلى البأس والسيف
في معيشته وعشقه ، فهو بدوى يعيش مع آله في طريق تحميها
الدولة وتكل حمايتها أحياناً إلى سكانها من أهل البادية ، لأنها
تتوسط بين الحجاز ومصر والشام . فمن واجبه — إن لم يكن من
طبعه — أن يحمل السيف ويعتز بالمنعة وصيانة الخوذة

وهو إلى هذا عاشق مشغوف بامرأة واحدة لا تغنيه عنها
امرأة غيرها ، فلا بد له منها وإن حيل بينه وبينها ولا غنى له
عن المجازفة والتقحم بالقوة في سبيلها

ولم نسمع من أخبار عمر بن أبي ربيعة أنه احتاج إلى القوة
مرة واحدة . بل علمنا من أخباره أكثر من مرة أنه تعرض

لبعض الحسان وألحف عليهن بالتوسل والمطاردة ، فرددنه
حتى أعيتهن الحيلة معه ، ثم ظهرن مع رجل من أوليائهن يتقلد
السيف فتجاهلن عمر ، ومضى في طريقه ، وقنع من الغنيمة
بالذهاب . ثم تمثل الممثلون :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له
وتتقى مريض المستأسد الضارى

ولا جرم أن يكون هذا شأن عمر وشأن حبه ، فقد كان
من أهل حاضرة يعيش فيها الرجل حياته كلها ولا تلجئه ضرورة
يوماً إلى تقلد سلاح ، وهو في معظم ما يرتاده من صويحباته طالب
جلسة ومحادثة إن تيسرت فهي فكاهة ساعة ثم تنقضى إلى نسيان
أو تسجلها قصيدة أو قصيدتان ، وإن تعسرت فلا موضع للسيف
في هذا الميدان ، وغير هذه الحسناء كثيرات بين الحسان
أما جميل فكان السيف فخره وفخر آله من قبيلة أبيه
أو قبيلة أمه ، ولم يفخر قط إلا تغنى بالمنعة وحماية الحرم ،
والنساء . فمن قوله في هذا المعنى :

نحن منعنا يوم أول نساءنا
ويوم قُأفَى ، والأسنة ترعف^(١)

ويوم ركاباً^(١) ذى الجذاة ووقعة

ببتيان كانت بعض ما قد تسلفوا^(٢)

يحب الغواني البيض ظل لوائنا

إذا ما أتانا الصارخ المتلهف

ومن قوله فى أخواله جذام :

جُذام سيوف الله فى كل موطن

إذا أزمّت يوم اللّقاء أزام^(٣)

هموا منعوا ما بين مصر فدى القرى

إلى الشام من حل به حرام

وتواترت الأنباء فى قصة عشقه باقتحامه وقلة مبالاته بأهل

عشيقته المترصدين لقتله . وقيل فيما قيل من ذلك إنه استدعاها

يوماً وعلم أهلها فتجمعوا لمفاجأته ، ثم جاءه من ينذره وينبئه

بنبا القوم فاستكبر الحرب ، وقال لمنذريه : « والله ما أُرهبهم ،

وإن فى كنانتي ثلاثين سهماً والله لا أخطأ كل سهم منها رجلاً

منهم . وهذا سبى والله ما أنا به رعىش اليد ولا جبان الجنان »

وذكر الهيثم بن عديّ فيما رواه صاحب الأغاني : « أن

(١) جمع ركية وهى البئر

(٢) ذو الجذاة وبتيان : موضعان

(٣) أزام : أى شدة

جميلاً طال مقامه بالشام ثم قدم وبلغ بثينة خبره فراسلته مع بعض نساء الحى تذكر شوقها إليه ووجدتها به وطلبها للحيلة فى لقائه وواعدته لموضع يلتقيان فيه ، فسار إليها وحدثها طويلاً وأخبرها خبره بعدها . وقد كان أهلها رصدوها فلما فقدوها تبعها أبوها وأخوها حتى هجما عليهما ، فوثب جميل فانتضى سيفه وشد عليهما فاتقياه بالهرب ، وناشدته بثينة الله إلا انصرف ، وقالت له : إن أقمت فضحتنى ، ولعل الحى أن يلحقوك . فأبى وقال : أنا مقيم وامضى أنت وليصنعوا ما أحبوا . فلم تزل تناشده حتى انصرف »

وغير هاتين القصتين كثير يردد ما فيهما من المغامرة والتحدى وقلة المبالاة . وقد تصح هذه القصص جميعاً أو يصح بعضها دون سائرهما أو لا تكون فيها قصة واحدة صحيحة . ولكن الحقيقة التى قصدنا إلى بيانها تبقى بعد ذلك قائمة فى مكانها ، وهى أن حباً جميلاً يتطلب مزاجاً فيه الجلد والفحولة ولو كان « دور تمثيل » على مسرح من مسارح الفنون ، فلو أننا تركنا الواقع جانباً وتخيلنا أن جميلاً وعمر ممثلان فى رواية مسرحية يمثلان ما روى لنا من أخبارهما لما استطعنا أن نخرج جميلاً إلى المسرح بغير سيفه ولا وجدنا من حاجة إلى السيف فى دور عمر وصويحباته فالمزاج هنا حقيقة فنية وإن لم يكن بالحقيقة الطبيعية ،

ولا يبعد أن يكون جميل شجاعاً متفحماً كما جاء في بعض أنبائه . إلا أنه على ما نعتقد كان مستطيعاً أن « يمثل دوره » في مسرح الحياة بغير حاجة إلى شجاعة أكثر من الشجاعة الظاهرة التي يتلبس بها الممثل أو تتلبس هي به إلى حين فقد كان يفتح ويعلم أنه آمن ، وكان يبتني حيث لا حاجة به إلى البقاء بعد افتضاح الأمر وانطلاق صاحبه ، لأنه لا يخشى العاقبة إذا أدركه المتعقبون . إذ كان أهله أعز من أهل بثينة ، وكان طالبوه يضعفون عن حرب قبيلته ولا يقدرّون على الدية إن رضى بها المطالبون بثأره ، وهو نفسه قد ذكر ذلك في بعض قصائده :

فليت رجالاً فيك قد نذروا دمي
وهموا بقتلى يا بشينُ لقوني
إذا ما رأوني طالعاً من ثنية
يقولون من هذا وقد عرفوني
يقولون لي أهلاً وسهلاً ومرحباً
ولو ظفروا بي خالياً قتلوني
وكيف ولا توفي دماؤهم دمي
ولا ما لهم ذو ندهة^(١) فيدوني

(١) الندهة : الكثرة من الماشية

فهو قد كان في حاجة إلى الاقتحام ، ولكنه كان اقتحاماً سهلاً عليه موافقاً لحاله وحال بثينة وأهلها . فافتحم ما أمن وسلم ، وما كان الخطر من بثينة وأهل بثينة ، فلما تجاوز ذلك إلى الخطر من مطاردة السلطان وإهدار بأمر الوالي الذي يقدر عليه وعلى قبيلته رجع إلى الأناة وهرب إلى اليمن كما قيل وليس يطلب من جميل ولا من عاشق في موضعه أن يكافح السلطان بشجاعته وينهض للدولة ببأسه ، فمن الجائز مع هذا أن يكون شجاعاً وأن يترك دياره إلى اليمن إذا لم يكن له بد من زيارة بثينة فيقتل ، أو من معالجة السلو وهو قريب منها فلا يطبق .

إلا أنه لم تكن به حاجة إلى أكثر من الشجاعة التمثيلية في دوره الحقيقي وفي روايته الواقعة ، وهذه الشجاعة التمثيلية كافية لاصطباغ شعره بصبغة الفحولة التي تظهر فيه ولا تظهر في شعر ابن أبي ربيعة .

أما إذا أعرضنا عن البحث في شجاعته لبيان هذا الفارق بينه وبين المتغزلين بالنساء عامة ، واعتمدنا أن نعرفها لنعرفه على حقيقته ونخلص إلى ناحية من نفسه قد تعين على فهمه وفهم عشقه وشعره ، فالذي يلوح لنا أنه كان شجاعاً بين قومه ككل بدوى يشجع في حمى الجماعة وفي ذمار القبيلة .

فلذا حاربوا حارب ، وإذا اجتراً فإنما يجترئ بقلوب المئات
والآلوف من ورائه ، ولكنه لا يخلو من رقة تقعد به عن النضال
العنيف والمعارك الدامية ، وفي بعض قوله ما يدل على ذلك
حيث يقول :

يقولون جاهد يا جميل بغزوة
وأى جهاد غيرهن أريد
لكل حديث بينهن بشاشة
وكل قتيل عندهن شهيد
أو حيث يقول :

يقولون صبّ بالغواني موكل
وهل ذاك من فعل الرجال بديع
وقالوا رعيت اللهو والمال ضائع
فكالناس فيهم صالح ومضيع

فلا هو للجهاد في غزوة ولا هو للجهاد في طلب ثروة ،
وليس كذلك الرجال الأقوياء الذين يحبون فلا يشغلهم حبهم عن
الجهاد حيث تنفتح أمامهم أبواب الجهاد ، بل يكون حبهم
مثيراً للعزيمة فيما طبعوا على اعتزامه من طلب المجد أو طلب العلو
على الأقران بالمال والجاه ، ويبعد جداً أن يملك الهيام على أحد

أحد من هؤلاء عقله ووقته وهموم عيشه حتى يفرغ له ويعي بأمره ، ويرضى بالضياح كما رضى جميل .

وفي بعض أوصافه ما ينم على هذه الرقة الضعيفة فيه كما تم عليها أخباره ودلالات شعره . فكان له مظهر يروع الناظر ، ولكنه كان عرضة للنوبات التي تعتريه فجأة ، وقد تدل على مرض في القلب والأعصاب ، فذكر بعض أصحابه أنه كان جالسا معه يحدثه « إذ ثار وتربد وجهه ووثب ناظراً مقشعر الشعر متغير اللون » حتى أنكره صاحبه .

فهذه حالة غير سليمة ، ولعله مات بعلّة من عللها قبل أن يمعن في الشيخوخة ، فقد علمنا من شعره أنه عاش حتى شاب ولا تزال بشينة في سن العشق والجمال ، ثم مات وهي كذلك لا تزال فتية . فكانت وفاته ولا ريب في كهولة دون الشيخوخة الفانية ، وكانت لعلّة من علل الضعف التي لا تدل على بنيان وثيق ، وإن كان هذا لم يمنع أن يجد في حب بشينة أقوى الجهد في هذا المقام .

بعض أخباره

قابلنا بين جميل وعمر بن أبي ربيعة في أكثر من خصلة واحدة من خصال الفن والحياة ، إذ الحقيقة أنهما متقابلان يوشك أن يتناظرا في جميع الخصال : بداوة وحضارة ، وعكوف على محبوبة واحدة وتشبيب بجميع الحسان ، وعاطفة تغلب فيها الحاسة الإنسانية حيث كانت ، وعاطفة تغلب فيها حاسة الطبقة الاجتماعية التي منها الشاعر ، وكلا الشاعرين صادق فيما يمثله أو فيما يحكيه .

ولأنهما ليتقابلان في أخبارهما كما يتقابلان في تلك الخصال التي أشرنا إليها .

فأخبار عمر مفهومة من ديوانه لأنه ينظم فحواها ولا يدع منها إلا بعض التفاصيل ، وأخبار جميل تحتاج إلى الرواة والناقلين ، لأن الذي نظمها منها في ديوانه قليل الغناء في باب الأخبار ، وإنما يدل على سيرته من طريق التفسير والتعقيب .

واختلاف العاطفتين يتأدى بنا إلى علة الفارق بينهما في هذه الخصلة كما يتأدى بنا إلى علل الفوارق بينهما في جميع الخصال .

فابن أبي ربيعة كان له في كل يوم خبر وعلاقة ، وكان
همه الأكبر أن يتحدث إلى الحسان ويتحدث عن الحسان .
فلا عجب في اتساع ديوانه للأخبار المنظومة التي هي متعته
وهجيره .

أما جميل فعاطفته خبر واحد ، إن لم ينظم في الحنين
والشكوى فلا نظم عنده ، ولا تأتيه الأخبار التي ينظم فيها إلا حين
يطراً طارئ يغير مجرى تلك الحياة الرتيبة ، كما قال حين
خرج عليه أهل بئنة :

ولست بناس أهلها حين أقبلوا
وجالوا علينا بالسيوف وطوفوا
وقالوا جميل بات في الحى عندها
وقد جردوا أسيافهم ثم وقفوا

أو كما قال حين وقف متذكراً على الأطلال :
بينما هن بالأراك معا إذ بدا راكب على جملة
فتناظرن ثم قلن لها أكرميه حيث في نزله

ولا غنى مع شعره عن نتف من أخباره التي تناقلها الرواة ،
وهي مما يزكيه شعره ويثبت في الجملة وإن عرضت له الزيادة
والاختراع في التفصيل ، وعلى هذا النحو هذه النخبة التالية

من أخباره الكثيرة التي توخينا فيها الدلالة عليه ، وتجنبنا التكرار فيها يشبه ما اخترناه .

* * *

« بين نظيرين »

لقي عمر بن أبي ربيعة جميلاً في طريقه إلى الشام فاستنشده من شعره فأسمعه من قوله :

خليليّ فيما عشتما هل رأيتما قتيلاً بكى من حب قاتله قبلي

ثم قال له : أنشدني أنت يا أبا الخطاب ، فأسمعه قصيدته العينية التي أولها :

ألم تسأل الأطلال والمتربعا بيطن حليات دوارس بلقعا

فلما بلغ إلى قوله :

فلما تواقفنا وسلمت أشرق

تبا لهن بالعرفان لما عرفني

وقربن أسباب الهوى لمتم

وجوه زهاها الحسن أن تتقنا

وقلن امرؤ باغ أكل وأوضعا^(١)

يقيس ذراعاً كلما قسن أصبعا

فصاح جميل واستخذى وقال : ألا إن النسيب أُخذ من هذا ، وما أنشد بعد ذلك حرفاً

فقال له عمر : اذهب بنا إلى بثينة حتى نسلم عليها . فامتنع جميل واعتذر بإهدار السلطان دمه إن وجدوه عندها ، وأشار له إلى أبياتها . فتقدم عمر حتى وقف على الأبيات وتأنس حتى كلم ، فقال : يا جارية ! أنا عمر بن أبي ربيعة فأعلمي بثينة مكاني ، فخرجت إليه بثينة في مبادها وهي تقول : والله يا عمر لا أكون من نسائك اللأئي يزعمن أن قتلهن الوجد بك ، فانكسر عمر ، ونظر فإذا امرأة أدماء طوالة

« بين الأستاذ وتلميذه »

والتقى جميل وكثير فتذاكرا النسيب ، فقال كثير : يا جميل ! أترى بثينة لم تسمع بقولك :

يقيك جميل كل سوء أماله

لديك حديث أو إليك رسول ؟

وقد قلت في حبي له كم وصباتي

محاسن شعر ذكرهن يطول

فإن لم يكن قولي رضاك فعلمي

نسيم الصبا يا بشن كيف أقول

فما غاب عن عيني خيالك لحظة
ولا زال عنها والخيال يزول

فقال جميل : أترى عزة يا كثير لم تسمع بقولك :
يقول العدا يا عزُّ قد حال دونكم
شجاع على ظهر الطريق مصمم
فقلت لها والله لو كان دونكم
جهنم ما راعت فؤادي جهنم
وكيف يروع القلب يا عز رائع
ووجهك في الظلماء للسفر معلم^(١)
وما ظلمتك النفس يا عز في الهوى
فلا تنقضى حبي فما فيه منقم
ثم بكيا قطعة من الليل وانصرفا . . .

« جَلَسَتْ أَوْ لَمْ تَجْلُسْهَا ؟ »

كان أهل بئينة يأتمنون عليها عجوزاً منهم يقال لها أم منظور ،
فجاءها جميل يسألها أن تريه بئينة . فقالت : لا والله .
لا أفعل وقد أئتمنوني عليها . فتوعد لها ليضرتها . . . قالت :

(١) السفر : المسافرون ، والمعلم ما يهتدون به من علامات الطريق

المضرة والله في أن أريكها . فخرج من عندها وهو يقول :

ما أنس لا أنس منها نظرة سلفت

بالحجر يوم جلثا أم منظور

ولا انسلايتها خرساً جباثرها^(١)

إلى من ساقط الأوراق مستور

فما كان إلا قليل حتى انتهى إليهم هذان البيتان فاتهما

أم منظور وهي تقسم لهم فلا يصدقونها !

وقيل في رواية أخرى إن مصعب بن الزبير أنشد هذان

البيتان فقال : لوددت أنى عرفت كيف جلثا ، فأخبروه أن

أم منظور هذه حية ، فكتب في حملها إليه مكرمة ، وسألها عن

الجلوة فقالت : ألبستها قلادة بلح ومخنقة بلح واسطتها تفاحة ،

وضفرت شعرها وجعلت في فرقها شيئاً من الخلق - أى الطيب -

ومر بنا جميل راكباً ناقته فجعل ينظر إليها بمؤخر عينيه ويلتفت

إليها حتى غاب عنا . فأقسم عليها مصعب لتجلون امرأته عائشة

بنت طلحة مثل ما جلث بشينة ، ففعلت . وركب مصعب ناقته

وأقبل عليها وجعل ينظر إلى عائشة بمؤخر عينيه ويسير حتى

غاب عنهما . . . ثم رجع

(١) الجباثر : الأساور ، والأوراق جمع وروق هو الفسطاط

« يَتَهَمُهَا وَلَا يُتَهَمُ بِأَمَةٍ »

أشاع أهل بئينة أن جميلاً إنما يتبع أمة لهم ، ليدافعوا عنهم
الوصمة ويصمموه ، فواعد جميل بئينة حتى لقيها بفرقاء ذى ضال
وتحادثا ليلاً طويلاً حتى أصبحرا ، فاقترح عليها أن ترقد فقالت :
ما شئت ! على أنى خائفة أن نكون قد أصبحنا ، فوسدها
جانبه ثم اضطجعا ونامتا ، وانسل مستوياً على راحلته ،
وأصبحت فى مضجعها فرآها الحى راقدة عند مناخ راحلة
جميل ، وفى ذلك يقول :

فمن يك فى حبي بئينة يمتري فبرقاء ذى ضال على شهيد

« لغة واحدة »

قال كثير : لقينى جميل مرة فسألنى : من أين أقبلت ؟
قلت : من عند أبى الحبيبة - أعنى بئينة
فسألنى : وإلى أين تمضى ؟
قلت : إلى الحبيبة - أعنى عزة

فقال : لا بد أن ترجع عودك على بدئك فتستجد لي موعداً من بشينة .

فاستجيت أن أرجع وعهدي بها الساعة . وألح قائلاً : لا بد من ذلك . فسأله : متى عهدك ببشينة ؟ فقال : في أول الصيف وقد وقعت سحابة بأسفل وادي اللوم ، فخرجت ومعها جارية لها تغسل ثيابها . فلما أبصرتني أنكرتني فضربت بيديها إلى ثوب في الماء فالتحفت به ، وعرفتني الجارية فأعادت الثوب في الماء ، وتحدثنا حتى غابت الشمس ، ثم سألتها الموعد فأنبأتني أن أهلها سائرون ، ولم أجد أحداً آمنه فأرسله إليها قال كثير : فاقترحت عليه أن آتي الحى فأتمثل بأبيات من شعر أذكر فيها هذه العلامة إن لم أقدر على الخلوة بها . فوافقني ، وخرجت حتى أنخت بالقوم ، فسألني أبوها : ما ردك ؟ قلت : ثلاثة أبيات عرضت لي فأحييت أن أعرضها عليك ، وأنشدته وبشينة تسمع :

فقلت لها يا عز أرسل صاحبي
إليك رسولا والموكل مرسل

بأن تجعلى بينى وبينك موعداً
وأن تأمرينى ما الذى فيه أفعلى

وآخر عهدى منك يوم لقيتنى
بأسفل وادى الدوم والثوب يُغسل

فضربت بثينة جانب خدرها وقالت اخساً . واخساً . فقال
أبوها : مَهْمٌ^(١) يا بثينة ! . . قالت : كلب يأتينا إذا نوم
الناس من وراء الرابية . ثم صاحت بالجارية أبغينا من الدومات
حطباً لنذبح لكثير شاة ونشويها له !

فقلت : أنا أعجل من ذلك ، ورحت إلى جميل فأخبرته ،
فعلم أن الموعد الدومات ، وخرجنا حتى أتيناها ، ثم جاءت
بثينة مع بنات خالتها الثلاث ، فما برحنا حتى برق الصبح ،
فما رأيت مجلساً قط أحسن من ذلك ، ولا رأيت مثل علم
أحدهما بضمير الآخر .

« خداج سهل »

سعت أمة لبثينة بها إلى أبيها وأخيها ، وقالت لهما : إن
جميلاً عندها الليلة !

(١) مهم كلمة يمانية معناها : ما خطبك ؟ وماذا بك ؟

فأتياها مشتملين على سيفين ، فرأياه جالساً حجرة^(١) منها
يحدثها ويشكو إليها بشه . ثم قال لها : يا بشينة ؛ أرايت ودى
إياك وشغفى بك ألا تجزيينه ؟

قالت : بماذا ؟

قال : بما يكون بين المحبين .

فأجابته مغضبة : يا جميل . أهذا تبغى ؟ والله لقد كنت عندى
بعيداً منه ، ولئن عاودت تعريضاً بريية لا رأيت وجهى أبداً .
فضحك وقال : والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عندك
فيه ؛ ولو علمت أنك تجيئينى إليه لعلمت أنك تجيئين غيرى ،
ولو رأيت منك مساعدة عليه لضربتك بسيفى هذا ما استمسك
فى يدى ، ولو أطاعتنى نفسى لهجرتك هجرة الأبد ، أو
ما سمعت قولى :

وإنى لأرضى من بشينة بالذى

لو أبصره الواشى لقرت بلابله

بلا ، وبأن لا أستطيع ، وبالمنى

وبالآمل المرجو قد خاب آمله

وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى

أواخره لا نلتقى وأواثله

فقال أبوها لأخيها : قم بنا . فما ينبغي بعد اليوم أن نمنع هذا الرجل من لقاءها .

« سكرة وصحوة »

رصد جميل بثينة في نجعة لأهلها ، حتى إذا صادف منها خلوة في ليلة ظلماء ذات غيم وريح ورعد ، سكر ودنا منها وحذفها بحصاة فأصابته بعض أترابها . ففرغت وقالت : « والله ما حذفني في هذا الوقت بحصاة إلا الجن ! » وفطنت بثينة فصرفتها ناحية من منزلها ، وبقيت مع بثينة أم الجسير أختها وأم منظور . فقامت إلى جميل فأدخلته الحباء معها وتحادثا طويلا ، ثم اضطجع واضطجعت إلى جنبه فذهب النوم بهما حتى أصبحا

وجاءها غلام زوجها بصبح من اللبن بعث به إليها ، فرآها نائمة مع جميل . فمضى لوجهه حتى أخبر سيده ورأته ليلي أخت بثينة وكانت قد عرفت خبرها وخبر جميل تلك الليلة ، فاستوقفته كأنها تسأله عن حاله ، وبعثت بجارية لهب تحذر صاحبها ، فجاءت الجارية فنبهتهما ، وصاحت بثينة بجميل وقد تبينت الصبح : نفسك ! نفسك ،

وهو غير مكترث لتخويفها يتمثل لها بقوله :

لعمرك ما خوفتى من مخافة
 بشين ولا حذرتنى موضع الحذر
 فأقسم لا يُلفى لى اليوم غرة
 وفى الكف منى صارم قاطع ذكر

فأقسمت عليه أن يلتقى نفسه تحت متاع البيت ، وأفهمته
 أنها إنما تسأله ذلك خوفاً على نفسها من الفضيحة لا خوفاً عليه .
 ففعل كارهاً ، ونامت هى كما كانت وإلى جانبها
 أم الجسير . ثم أقبل زوجها ومعه أبوها وأخوها يأخذ بأيديهما
 ولا يشك فى أنه سيطلعهما على ريبة كما أنبأه غلامه . فلما
 كشفوا الثوب إذا أم الجسير حيث كانوا ينظرون جميلاً !
 فخجل الزوج ، وصاحت أختها ليلي : قبحكما الله ! أفى كل
 يوم تفضحان فتاتكما ويلقا كما هذا الأعور - تعنى زوج
 بشينة - بكل قبيح ؟

قال راوى القصة : وأقام جميل عند بشينة حتى أجهن الليل
 ثم ودعها ، وانقطعا عن اللقاء إلى أن نسيت القصة !

« بين سلطانين »

كان عمر بن ربيع بن دجاجة والياً على بلاد عذرة .
 فشكا إليه أهل بثينة خميلاً وقالوا : إنه يهجوهم ويغشى بيوتهم
 وينسب بنسائهم ، فأباحهم دمه إن وجدوه عندهم ، ونجا
 جميل بنفسه إلى اليمن فلم يزل بها حتى عزل ذلك الوالى وانتجع
 بنو عذرة ناحية الشام فارتحل إليهم

« بثينة تنقد »

لقى جميل بثينة بعد تهاجر طال بينهما ، فتعابها ملياً ثم
 قالت بثينة : ويحك يا جميل ! أتزعم أنك تهوانى وأنت الذى
 تقول :

رمى الله فى عيني بثينة بالقذى
 وفى الغر من أنيابها بالقوادح

فأطرق طويلاً يبكى . ثم قال : بل أنا القائل :

ألا ليتنى أعمى أصم تقودنى بشينة لا ينحى على كلامها
 فقالت له : ويحك ! ! ما حملك على هذا المنى ! أو ليس
 فى سعة العافية ما كفانا جميعاً ؟ !

« خاتمة هوى »

روى أيوب بن عباية قال :
 « خرجت من تيماء فى أغباش السحر ، فرأيت عجوزاً على
 أتان ، فتكلمت فإذا أعرابية فصيحة . فقلت : ممن أنت ؟
 قالت : عذرية

فأجريت ذكر جميل وبشينة فقالت : والله إنا لعلى ماءٍ لنا
 بالحباب وقد تنكبنا الجادة ^(١) لحيوش كانت تأتينا من قبل
 الشام تريد الحجاز ، وقد خرج رجالنا لسفر وخلفوا معنا
 أحداثاً ، فأنحدروا ذات عشية إلى صرم قريب منا يتحدثون
 إلى جوار منهم ، فلم يبق غيرى وغير بشينة ، إذ انحدر علينا
 منحدر من هضبة تلقاءنا . فسلم ونحن مستوحشون وجلون ،

(١) الجادة : مستوى الطريق ، والصرم الجماعة القليلة من الناس

فتأملته ورددت السلام فإذا جميل !

قلت : أجميل !

قال : أى والله ؛

وإذا به لا يئاسك جوعاً . فقممت إلى قعب لنا فيه أقط^(١) مطحون ، وإلى عكة^(٢) فيها سمن ورّب^(٣) فعصرتها على الأقط ثم أدنيها منه وقلت : أصب من هذا . فأصاب منه ، وقمت إلى سقاء فيه لبن فصبيت عليه ماء بارداً فشرب منه وتراجعت نفسه

فقلت له : لقد بلغت ولقيت شراً فما أمرك ؟

قال : أنا والله فى هذه الهضبة التى ترين منذ ثلاث ما أريمها أنتظر أن أرى فرصة . فلما رأيت منحدر فتيانكم أتيتكم لأودعكم وأنا عامد إلى مصر . فتحدثنا ساعة ثم ودعنا وشخص ، فلم تطل غيبته أن جاءنا نعيه ، فزعموا أنه قال حين حضرته الوفاة :

صرح النعى وما كنى بجميل
وثوى بمصر ثواء غير قفول

(٢) العكة الزق الصغير

(١) الأقط اللبن الجاف

(٣) الرّب ما يطبخ من التمر

ولقد يجر الذيل في وادى القرى
 نشوان بين مزارع ونخيل
 قوى بشينة فاندبى بعويل
 وابكى خليلك دون كل خليل

وتحدث من شهد موت جميل بمصر أن جميلاً دعاه فقال :
 هل لك في أن أعطيك كل ما أخلفه على أن تفعل شيئاً أعهده
 إليك ! . . . إذا أنا مت فخذ حلى هذه التى فى عيبتى
 فاعزها جانباً ثم كل شىء سواها لك ، وارجل إلى رهط بنى
 الأحب من عذرة ، فإذا صرت إليهم فارتحل ناقي هذه
 واركبها ، ثم البس حلى هذه واشققها ، ثم اعل على شرف
 وصح بهذه الأبيات :

صرح النعى وما كنى بحميل
 وثوى بمصر ثواء غير قفول

إلى آخر الأبيات الثلاثة المتقدمة .

قال الرجل : فلما واريته أتيت رهط بشينة ففعلت
 ما أمرنى به جميل ، فما استتمت الأبيات حتى برزت إلى امرأة
 يتبعها نسوة قد فرعن طولاً وبرزت أمامهن كأنها بدر قد برز
 فى دُجْنَة وهى تتعثر فى مرطها حتى أتتني فقالت : يا هذا !

والله لئن كنت صادقاً لقد قتلتني ، ولئن كنت كاذباً لقد فضحتني !

قلت : والله ما أنا إلا صادق ، وأخرجت حلتها . فلما رأتها صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها ، واجتمع نساء الحى يبكين معها ويندبنه حتى صعقت فمكثت مغشياً عليها ساعة ، ثم قامت وهي تقول :

وإن سلوى عن جميل لساعة

من الدهر لا حانت ولا حان حينها

سواءً علينا يا جميلُ بن معمر

إذا مت بأساء الحياة ولينها

مختارات من شعره

« دعاء »

فيا رب حبيبي إليها وأعطني الـ
 مودة منها ، أنت تعطي وتمنع
 وإلا فصبرني وإن كنت كارهاً
 فإني بها يا ذا المعارج مولع

.....

تمتعت منها يوم بانوا بنظرة
 وهل عاشق من نظرة يتمتع ؟
 كفى حزنناً للمرء ما عاش أنه
 بين حبيب لا يزال يروع
 « لذة الظلم ! »

رد الماء ما جاءت بصفو ذنائبه^(١)
 ودعه إذا خيضت بطرق مشاربه

(١) جمع ذنوب وهي الدلو لها ذنب

أعائب من يحلو لدى عتابه
 وأترك من لا أشتى وأجانبه
 ومن لذة الدنيا وإن كنت ظالماً
 عناقك مظلوماً وأنت تعاتبه

« الميت المبعوث »

وما بكت النساء على قتيل
 بأشرف من قتيل الغانيات
 فلما مات من طرب وسكر
 رددن حياته بالمسمعات
 فقام يحجر عطفه خماراً
 وكان قريب عهد بالممات
 « الزمن المحاي »

أما كنت أبصرتني مرة
 ليالى نحن بذي جواهر
 وإذا أنا أغيد غض الشبا
 ب أجر الرءاء مع المتزر

وإذا لمي كجناح الغرا
 ب ترجل بالمسك والعنبر
 فغير ذلك ما تعلمين
 تغير ذا الزمن المنكر
 وأنت كلؤلؤة المرزبان
 بماء شبابك لم تعصرى
 قريبان مربعنا واحد^(١)
 فكيف كبرت ولم تكبرى^(١)

« داء وطب »

ارحميني فقد بليت فحسبي
 بعض ذا الداء يا بشينة ، حسبي
 لا منى فيك يا بشينة صهي
 لا تلوموا ، فالحب قرّح قلبي
 زعم الناس أنّ دأى طنى
 أنت والله يا بشينة طبي !

(١) المرزبان الرئيس عند الفرس ، وترجيل اللمة تسريحها

« كدر ومطروق ! »

وإني لأستحي من الناس أن أرى
 رديفاً لوصل أو على رديف
 وأشرب رنقاً منك بعد مسودة
 وأرضى بوصل منك وهو ضعيف
 وإني للماء المخالط للقذى
 إذا كثرت وراده لعيوف

« من هي ؟ »

قناة من المران ما فوق حقوها
 وما تحته منها نقا يتقصف
 لها مقلتا ريم وجيد جداية
 وكشح كطى السابرية أهيف^(١)

(١) المران شجر تتخذ منه الرماح ، والحقير الخصر ، والنقا مجتمع الرمل ،
 والجداية : الغزال ، والسابري الحرير

« وفاء الله ! »

... ..

فما وجد العذرى عروة إذ قضى
 كوجدى ولا من كان قبلى ولا بعدى
 على أن من قد مات صادف راحة
 وما لفؤادى من رواح ولا رشد
 يكاد فضيض الماء يחדش جلدها
 إذا اغتسلت بالماء من رقة الجلد
 وإنى لمشتاق إلى ريح جيها
 كما اشتاق إدريس إلى جنة الخلد
 لقد لامنى فيها أخ ذو قرابة
 حبيب إليه فى ملامته رشدى
 وقال أفق ، حتى متى أنت هائم
 بيثنة فيها قد تعيد وقد تبدى
 فقلت له فيها قضى الله ما ترى
 على ، وهل فيها قضى الله من رد

فإن كان رشداً حبها أو غواية
 فقد كان ما قد كان منى على عمد
 لقد لج ميثاق من الله بيننا
 وليس لمن لم يوف لله من عهد
 فلا وأبيها الخير ما خنت عهدهما
 ولا لي علم بالذى فعلت بعدى
 وما زادها الواشون إلا كرامة
 على ، وما زالت مودتها عندى
 أفى الناس أمثالى أحبوا فحالم
 كحالى أم أحببت من بينهم وحدى
 وهل هكذا يلتقى المحبون مثل ما
 لقيت بها أم لم يجد أحدٌ وجدى

« محب أكل »

ويعجبني من جعفر أن جعفرأ
 ملحٌ على قرص ويبكى على جمل
 فلو كنت عذرى العلاقة لم تسكن
 بطيناً وأنساك الهوى كثرة الأكل

« صرخة »

فإن يحجبوها أو يحل دون وصلها
 مقالة واش أو وعيد أمير
 فلم يحجبوا عيني عن دائم البكا
 ولن يملكوا ما قد يجن ضميري
 إلى الله أشكو ما ألاقى من الهوى
 ومن حرق تعادنى وزفير
 ومن كرب للحب فى باطن الحشا
 وليل طويل الحزن غير قصير
 سأبكي على نفسى بعين غزيرة
 بكاء حزين فى الوثاق أسير
 وكنا جميعاً قبل أن يظهر النوى
 بأنعم حالى غبطة وسرور
 فما برح الواشون حتى بدت لنا
 بطون الهوى مقلوبة لظهور
 لقد كنت صعب النفس لو دام وصلنا
 ولكننا الدنيا متاع غرور

لو أن امرأ أخفى الهوى عن ضميره
لمت ولم يعلم بذاك ضميري

« عند ذلك »

هي البدر حسناً والنساء كواكب
وشتان ما بين الكواكب والبدر
لقد فضلت حسناً على الناس مثلما
على ألف شهر فضلت ليلة القدر
عليها سلام الله من ذي صباية
وصب معنى بالوساوس والفكر
أبكي حمام الأيك من فقد إلفه
وأصبر ؟ مالى عن بشينة من صبر
ومالى لا أبكى وفى الأيك نائح
وقد فارقتنى شخنة الكشح والحصر^(١)
يقولون مسحور يجن بذكرها
وأقسم ما بي من جنون ولا سحر

(١) شخنة : دقيقة ، والكشح ما بين السرة ووسط الظهر

ذكرت مقامى ليلة البان قابضاً
 على كف حوراء المدامع كالبدن
 فكدت ولم أملك إليها صبابة
 أهيم وفاض الدمع منى على نحرى
 تجود علينا بالحديث وتارة
 تجود علينا بالدرضاب من الشجر
 فياليت ربى قد قضى ذاك مرة
 فيعلم ربى عند ذلك ما أمارى

« وعد مطول » .

يهواك ما عشت الفؤاد فإن أمت
 يتبع صداى صداك بين الأقبر
 إنى إليك بما وعدت لناظر
 نظر الفقير إلى الغنى المكثّر
 تقضى الديون وليس ينجز موعداً
 هذا الغريم لنا ، وليس بمعسر
 ما أنت والوعد الذى تعدينى
 إلا كبرق سحابة لم تخطر

« ليت »

لقد ذرفت عيني وطال سفوحها
وأصبح من نفسي سقيماً صحبحها
ألا ليتنا نحيا جميعاً وإن نمت
يجاور في الموتى ضريحى ضريحها
فما أنا في طول الحياة براغب
إذا قيل قد سُوى عليها صفيحها
أظل نهاري مستهماً ويلتقى
مع الليل روحى في المنام وروحها
فهل لي في كتمان حبي راحة وهل تنفعني بوحه لو أبوحها

« جهاد »

إذا قلت ما في يا بشينة قاتلى
من الحب قالت ثابت ويزيد
وإن قلت ردى بعض عقلى أعش به
تولت وقالت ذاك منك بعيد

فلا أنا مردود بما جئت طالباً
 ولا جها فيما يبيد يبيد

 ومن يُعط في الدنيا قريناً كمثلها
 فذلك في عيش الحياة رشيد
 يموت الهوى مني إذا ما لقيتها
 ويحيا إذا فارقتها فيعود
 يقولون جاهد يا جميل بغزوة
 وأى جهاد غيرهن أريد ؟
 لكل حديث بينهن بشاشة
 وكل قتيل عندهن شهيد

« في الصلاة »

أرى كل معشوقين غيري وغيرها	يلدان في الدنيا ويغبتان
وأمشي وتمشي في البلاد كأننا	أسيران للأعداء مرتهان
أصلي فأبكي في الصلاة لذكرها	لى الويل مما يكتب الملكان
ضمنت لها ألا أهم غيرها	وقد وثقت مني بغير ضمان
ألا يا عباد الله قوموا لتسمعوا	خصومة معشوقين يختصمان

وفي كل عام يستجدان مرة
يعيشان في الدنيا غريبين أينما
وما صاديّاتُ صُمن يوماً وليلة
لواغب لا يصدرن عنه لوجهة
يرين حباب الماء والموت دونه
بأكثر منى غلة وصبابة
عتاباً وهجراً ثم يصطلحان
أقاماً ، وفي الأعوام يلتقيان
على الماء يغشين العصي حوانى
ولا هنّ من برد الحياض دوان
فهن لأصوات السقاة روانى
إليك ، ولكن العدو عدانى

« اليمين وما ملكت »

ولو أرسلت يوماً بشينة تبتغى
لأعطيتها ما جاء يبغى رسولها
سلينى مالى يا بشين فإنمما
فمالك لما خبر الناس أننى
لأبلى عذراً أو أجيء بشاهد
لى الله من لا ينفع الوعد عنده
ومن هو ذو وجهين ليس بدائم
ولست وإن عزت على بقائل
يمنى ولو عزت على يمىنى
وقلت لها بعد اليمين سلينى
يبتن عند المال كل ضنين
غدرت بظهر الغيب لم تسلينى
من الناس عدل أنهم ظلمونى
ومن حبله إن مُد غير متين
على العهد حلاف بكل يمين
لها بعد صرم يا بشين صلينى

« نعى نفسه »

صرح النعى وما كنى يجميل
وثوى بمصر ثواء غير قفول
ولقد يجر الذيل فى وادى القرى
شوان بين مزارع ونخيل
بكر النعى بفارس ذى همّة
بطل إذا حم اللقاء مزيل^(١)
قوى بشينة واندى بعويل
وابكى خليلك دون كل خليل

أبيات مفردة

فى معان مختلفة

« لو . . . ولا »

وددت ولا تغنى الودادة أنها
نصيبى من الدنيا وأنى نصيبها

(١) المذيل من أهان ماله ، أو طال ذيله أو درعه

« بدل مطلوب »

أفى كل يوم أنت محدث صبوة
تموت لها ؟ بُدلت غيرك من قلب

« الصديق أنجح »

حلفت لكى تعلمين صادقاً
وللصديق خير فى الأمور وأنجح

« شتان المرادان »

أريد صلاحها وتريد قتلى
وشتى بين قتلى والصلاح

« داء مزمن »

علقت الهوى منها وليداً فلم يزل
إلى اليوم ينمى حبها ويزيد

« لا قرار »

إذا ما دنت زدت اشتياقاً وإن نأت
جزعت لنأى الدار منها وللبعد

« زهد ! »

رفعت عن الدنيا المنى غير ودها
فما أسأل الدنيا ولا أستريدها

« تفويض »

فرينى أطعك فى كل أمر
أنت والله أوجه الناس عندى

« دعوة أم دعاء »

وعاذلين أحوالنا فى محبتها
يا ليتهم وجدوا مثل الذى أجده

« عذر أو ظلم »

لو تعلمين بما أجن من الهوى
لعذرت أو لظلمت إن لم تعذري

« خبر مكتوم ! »

أموت وألقى الله يا بئن لم أبسح
بسرک والمستخبرون كثير

« موعده في السماء »

أقلب طرفي في السماء لعله
يوافق طرفي طرفكم حين ينظر

« ليس كمثله ! »

لا حسنها حسن ولا كدلالها
دل ولا كوقارها توقير

« جفون قصيرة »

كأن الحب قصير الجفون
ن لطول الليالى ، ولم تقصر

« الموطن الغرامى »

فإن يك جثمانى بأرض بعيدة
فإن فؤادى عندك الدهر أجمع

« قليل نافع »

إن القليل كثير منك ينفعنى
وما سواه كثير غير نفاع

« حجته لها »

وبين الصفا والمروتين ذكرتكم
بمختلف ، والناس ساع وموجف

« جلد جاموس »

وما يبتغى منى عداة تعاقبوا
ومن جلد جاموس سمين مطرق

« ماذا يقولون ؟ »

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا
سوى أن يقولوا إننى لك عاشق

« غير خوار »

فلو كنت خواراً لقد باح مضمري
ولكننى صعب القنائة عريق

« علامة »

فإن وجدت نعل بأرض مضلة
من الأرض يوماً فاعلمى أنها نعلى

« ثقل » محبوب

وتثاقلت لما رأت كلني بها
أحبب إليَّ بذاك من مثاقل !

« التحول حزم ! »

وإن التي أحبيت قد حيل بينها
فكن حازماً ، والحازم المتحول

« لعلها »

وقالوا نراها يا جميل تبديت
وغيرها الواشي فقلت لعلها

« آلة الصيد »

ولكنما يظفرن بالصيد كلما
جلون الثنايا الغر ، والأعين النجلا

« صلح على انفراد »

فإن تك حرب بين قومي وقومها
فإني لها في كل نائبة سلم

١٩٩١ / ٧٠٤٥	رقم الإيداع
ISBN 977-02-3436-2	الترقيم الدولي

١ / ٨٦ / ٥٣

مطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

اقرأ

هو جميل بن مَعْمَر الذي شَهَرَ بِثِينَةِ بحبه
حتى اشتهر بها فُسِّمى جميل بثينة كان في
زمانه إمام العشاق العذريين، وأستاذ المدرسة
الغزلية.. مدرسة الشعراء المحبين الموكلين
بمحبوبة واحدة، ينظمون الشعر فيها
ولا ينظمونه في غيرها.

وكان إخلاصه لبثينة وإخلاصها له هو
الإخلاص الذي ينطوى عليه كل عاشقين
مثلها، لا هو في السماء، ولا هو في الخيال،
ولا هو فوق طاقة الناس.

ص
١٠٠

٤٠٠١٣٨/٠٤



0252727

مكتبة الإسكندرية

tx.
782
4a
01
3